رواية

مرتضى گزار

مكنسة الجنة

مكتبة
الفكر الجديد
26-01-2018

مكنسة الجنة

رقم الإيداع لدى دائرة
المكتبة الوطنية
(٢٠٠٨/١٢/٤٢٠٦)

٨١٣٫٩
عباس ، مرتضى كزار
مكنسة الجنة / مرتضى كزار عباس . ـ عمّان : دار أزمنة ، ٢٠٠٨ .
(١٤٨) ص.
ر.إ.: ٢٠٠٨/١٢/٤٢٠٦.
الواصفات: / الروايات العربية / / العصر الحديث

* تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل المكتبة الوطنية

ISBN 978-9957-09-367 -9 (ردمك)

مكنسة الجنة : مرتضى كزار

الطبعة الأولى : 2009

© جميع الحقوق محفوظة بموجب اتفاق

أزمنة ®

أزمنة للنشر والتوزيع

تلفاكس : ٥٥٢٢٥٤٤

ص.ب : ٩٥٠٢٥٢

عمّان ١١١٩٥ الأردن

شارع وادي صقرة، عمارة الدوحة، ط ٤

E.Mail:info@azminah.com

Website:http://www.azminah.com

All rights reserved. No Part of this book may be reproduced, stored in all retrieval system or trasmitted in any form or by any mean without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

تصميم الغلاف : أزمنة (إلياس فركوح)

فرز وسحب الأفلام : زمرّد

الترتيب والإخراج الداخلي : أزمنة (إحسان الناطور، نسرين العجو)

الطباعة : جمعية عمّال المطابع التعاونية / الأردن

تاريخ الصدور : كانون الثاني / يناير 2009

مكتبة الفكر الجديد

رواية

مرتضى گزار

مكنسة الجنة

منشورات الجمل

مكتبة الفكر الجديد

إهداء

لك ـ مرةً ثانية

مكتبة
الفكر الجديد

(1)

عشتُ بِسرعة، يفصلني عن عام «الإنّكْ شي» الذي ولدت فيه 36.806.800 دقيقة تقريبا، إذا إستَثنَيتَ طبعا الدقائقَ التي يُحرقها الأن زمن الكتابة منذ 7-3-2007 والدقائق الجديدة التي سأدشِنها حتى نِهاية عُمري.

الإنِّك شي إسم يشبه الطاعون والمصران والفيضان، وكلها أسماء أعوام قديمة، ورُغَم إِني قد ولِدتَ في عام 1936 ميلادي، الاّ أن الأفندي مَكتوبلي رئيس تَحرير صحيفة بَصرة الصادرة عام 1920 كَتب بِأن حادثة الإنّك شي جَرت عام 1636 ميلادي، قَبل أَن يَشتري أفراسياب البصرة مِن العثمانيين بدراهم معدودة، إذّ سَرَقت عصابة من العبيد حِصان جُندي إنكشاري، واِستعملوُه مُؤدياً في مَواكب العَزاء الحسينية، ألبسوه حِلةً خَضراء، أسْرجوه تابوتاً فارغاً، أَدخلوه بابَ المسجد الكبير، وَكانت لَيلة ذِكرى وَفاة أحد الأئمة، إستشاطَ الناس غَضباً وَبُكاءاً، مَشهد حِصان التشبيه الأنكشاري الذي يَحمل النَعش ألهب قلوبهم، كانت الجموع تَتماوج تَحت قوس الباب الضَيّق، تفتح الأرض للحصان، تَوَلّدَ قَوسٌ آخر مِن تَشابك الرؤُوس والأيدي والأقدام، في جِهة الباب الأخرى. الزحام إنْضَغَط في كُرة بَشرية كبيرة، تَتَدلى مِنها أَيدي وأصابع مَحشورة تَستنجد بأسماء مُقدسة، يَدفعها مِن الخَلف حصان «الإنّك شي» وَيحصرها من الجوانب إِسطوانات الباب، كانت حادثة مُروعة.... مات فيها خَلقٌ كَثير.

عاش حصان الأنّك شي خَمسة أعوام بَعدها، لِذا ظَلت بَعض العَجائِز تتَذكر تِلك الحادِثة كُل خَمسة أَعوام، ويطلقن بالخَفاء وَ دون أَن يَسمع بِهُن أحد «عام الإِنّكْ شي»...على كل عام خامِس، وَيوم مِيلادي يَقع ضِمن تَضاعيف ذلكَ الرقَم الكبير، الذي يقبلُ القِسمة على خمسة!.

أَتَظاهر بِمرض السُكري منذ الخَمسينات من عُمري، أَشرب الماء بِكثرة، لأني أَحتاج الى اللَعاب بإِستِمرار داخل صُندوق فَمي، إِمتَهنت رَسم جداريات الرَئيس، طَويت مع تَلافيف دماغي لوحات جماعة «العلبة الخشبية» التي أَسَستها مع أَستاذي اليوناني الأصل إفيديسيان، بعتها أيضاً مع مَرسمنا في «الداكير» على ضِفاف شَط العَرب، وَلم يعد يُحصي ما رسَمته من صِور وجداريات للرئيس، صِرت أرسُمهُ وأنا نائم، وَحينما أمارِس هِوايتي في تَمشيط دَرابين العَشار العَجيبة، كنت أرسمه بِلساني على سَقف حَلقي.

«وداد» الذي إِلتحق بي في دَقيقة ما يوم كان عمره سِتة عَشر عاماً، كان يرسُم الرئيس معي أيضاً، أكشِف سَبابتُه السَوداء الكبيرة تحت بطنه، وأَمضَغها، أَلوثها باللعاب الذي استخدمته في صور صندوق فمي، يدفعني فأقع على جذور المسامير المغروسة في الأخشاب، يمد يده نحو وجهي، أُخَرب صورة الرئيس في فمي وأَعصر له بَصقة في كَفه، يلطش بها مؤخرتي، أو يَدهن بها خرطومه الأسود، ويؤزني في جسمي فأشعر برأس الرئيس يتمرغ في أمعائي.

فَعلت معه هذا مراراً، رغم ان النسبة بين دقائقي ودقائقه تعادل دهراً إنكشياً!.

وداد وأخوه مدين ..مُلايَة وحَياوي، أُمهم وأَبوهم، عاشوا هناك في دَربونَة العبيد الكائنة في البصرة القديمة، عجنتهم الدقائق والبحار والرياح

مكتبة الفكر الجديد

الوخمة، حتى تمخض منهم مترجم اسود البشرة، تولك ها سورت انسكت، مُترجم اسود البَشرة، كما يقول الناس في كوبنهاكن، هذا الكائن إكتشفني او أَعاد إكتشافي بعد أَن تَواريت عن خارطة العالم، مدين حَياوي هذا يعيش حالياً في شقة كئيبة في جزيرة يولاند الدنمركية، مُنح لجوءاً سياسياً هو والعشرات من المترجمين العراقيين الذين عَملوا مع كتيبة القوات الدنمركية في البصرة.

البريطانيون والدنماركيون والنَرويجيون و الأستراليون في البَصرة والقُرنة والعمارة، والبُلغاريون والرومانيون والإيطاليون في الناصرية، واليابانيون والهولنديون في السماوة، والكوريون في أَربيل، والبولنديون والأوكرانيون والجورجيون في الديوانية والكوت والحلة، والإسبان والسلفادوريون في النَجف ، والأمريكان في كركوك والموصل وبغداد.نَشرهم «وداد» هكذا في خارطة الدبابيس الكبيرة التي رَسمها بعد سقوط نظام الرئيس ودخولهم البلاد في عام 2003 ميلادي.

هكذا سأعرف وسأقرأ مثلكم عن «قصة إكتشافي!»، يسلم مدين كل اسبوع كيس نفايات الجنود الدنمركيين الى أَخيه وداد، الذي كَبُرَ كثيراً، ولم يعد يشبه وداد الذي أَعرفه، يذهب ليبيع تِلك النِفاية، ويُصَنف محتوياتها، ساعات وقواميس أَلكترونية وبطاقات ذاكرة رقمية وروايات جيب بوليسية، وكلها مُستعملة طبعاً، مُجَسمات نواعير مصنوعة من علب السكائر، مظاريف ودبابيس وبطاقات، يَفرزها و يجني منها مبلغاً يعينه على التَنفس والسُكر والنوم، كان مدين عائداً من طلعته الأخيرة مع فرقة إزالة الألغام في «السيبة»[1]، خميس أَو أربعاء، لا أَدري، «وداد» يَتَدثر مُخفياً ما تَبقى من جسده

1 مدينة حدودية تبعد بمسافة (57) كيلومتر عن البصرة جنوباً.

مكتبة الفكر الجديد

المُتعب، أَخرج له من تحت غِطاءه كتاب صادر من مديرية الأمن، التابعة الى عهد الرئيس والجداريات، يفيد بأمر إعتقال اثني عشر رساماً، وأسماؤهم مدرجة في أدنى الورقة، طبعاً كنت أعرفهم كُلهم، ولم يكن إسمي مُدرجاً معهم، حصل وداد على الكتاب من أنقاض مبنى مديرية الأمن، أو «الليث الأبيض» كما كانت تسمى أيام الرئيس السابق، يوم هدمها الناس، وصادروا وثائقها، ونبشو ارضيتها بحثاً عن سجناء ومنسيين في محاجرها التَحتية.

سَلَم الكتاب الورقة الى اخيه مدين وأخرج خارطة يقول بأنه نسَخها من أَحد عمال النفط، خطوط دقيقة ومحتدمة، عليها دوائر تَبَيَن بأنها ابار نفطية، يستعملها الموظفون لترشدهم إلى مواقع الأبار في مِهنتهم، يُؤشر وداد على البئر (334-غَرب قرنة)، حيث كتَب بخطه السَقيم..هنا مقبرة «رسامي جداريات الريس».

(2)

تَرك مَدينّ مقر قاعة المحاضرات التابع لمؤسسة (دي آر أو) في محلة الفَرسي وأخبر المُحاضر النَرويجي ذا القميص الأصفر المُجَعلك.. كما كان يسمعَ من ينتقده من الشباب الذين جمعهم له بعناية من الأزقة الرطبة..آخبره بأنه مرتبط الأن ..(عليك أن توضح مفهوم التأسيس المدني بنفسك....لن يلتهموك لاتَخف، لم يعد أحد يشعر بالجوع، فقط مرر هذا القميص على أقرب صَفيحة ساخنة ولا تسكب مياه السخان في حوض غسالتك العاجية!).

إستقل مَدين تكسي الى مرآب ساحة سعد متوجهاً الى القرنة[2] ...وتَبع

2 مدينة تقع الى الشمال من مدينة البصرة وتبعد عنها مسافة (75) كيلومتر، إرتبط إسمها بإلتقاء دجلة والفرات، كانت تسمى بـ(العلية) في عهد الإمارة الإفراسيابية ،وإسترجعت اسمها القديم منذ عهد الرومان (القرنة)،كما يذكرها الرحالة الفرنسي «تافرينه» في رحلته بذلك الإسم.

مكتبة الفكر الجديد

صوت احد السواق (واحد طالع قرنه) فدحجه من بعيد ووقف امامه قائلا«..(أنا)، ضحك السائق المعيدي وسلك بيده الى المقعد الأمامي وحينما استقر بجسده في سيارة الدولفين..لمح من مرآة السيارة امرأه عجوزاً خلفه تجانبها امراءه شابة ...و(يحتشك) معها رجل يرتدي بدلة عمل، لكن السيدة العجوز باغتت نظراته التَفقدية..(إنتظرناك طويلاً!!!)عَلقت مبتسمة.

هذه العَجوز، قبل أن تنزل من الدولفين في ناحية الدير وَزعت على الركاب بذور الهيل التي إستلت كيسها من عمامتها..خبأ مدين حَبته في جيب الجينز الخلفي، أما السيدة الشابة والرجل المهني اللذان ترجلا في «شَلهة الحَسن»، قرب معمل الغاز المهجور، فقد ظَلا يخنقان الضحكات من جراء سماعهم للـ(هأ) التي يصدرها مَدين، بينما لم يُبدِ السائق أية تعابير توحي بأمتعاظه حتى بعد أن بقي وحيداً معه ..(هأ).

حاول مَديّن أن يتذكر تلك العِبارة التي كانت تتلفظ بها أمه لأطفال الجيران حينما تنتاب أحدهم هذه الـ(هأ)، ثم جرب أن يكتم نَفَسه لثواني..(هأ) لم ينجح الأمر، ثم اخرج قاموسه الألكتروني الصغير ذا الأربعة عشر لغة الذي اشتراه قبل يومين من عمارة الدوامة بقصد تضييع هذا الصوت مع نقرات الأزرار المُوسقة، عندها كان السائق المعيدي يمُد يده تحت خرقة بجانب مُعَشق السرعة..(يلّه..أخرج كل ما لَديك بسرعة) .

إنتبه مدين إلى ذلك المسدس الكبير الذي يُسلطه السائق فوق رَقبته ونَظر من زُجاجه الدولفين الى نهر البَزل الصغير وتَخيل شاباً اسود مَرمياً بين زُغابات القَصب الخضراء، (أرأيت كيف وَلت تلك التريوعة!!!) باغته السائق مفسراً له بـ(أن الخوف وحده كفيل بطرد هذه الغازات الضالة!).

مكتبة الفكر الجديد

أوصَلته الدولفين الى تقاطع الخطوط الثَلاثة التي يَندلق منها الوافدون إلى نواحي الحْمود وطَلحة والمْدَينَة، ومنه إستقل تكسي الى مكان قريب من معسكر الكتيَبة الدنماركية ...ليمشي قُرابة رُبع الساعة، ويدخل المعسكر مُتجهاً الى مهاجع الجُنود ويباشر تَبديل ملابسه ويَستخرج خوذته ونَظارته الصَفراء من لوكر «مادس ثيتشوسين» صديقهُ الدنمركي المُقرب، الذي سَيسبقهُ إلى غرفة التخطيطات المصغرة...آر 27.

هناك حيث إجتمع المجندون منذ الثامنة صباحاً بإمره القائدة الجديدة، تلك التي سَمع عنها مَديّن وعن وجهُها الذي تحرسُه زنابق الجن العارية!!، فأدخَر أحلامه الصغيرة بشأن العمل معها وتَرجمة جملها النارية..الأنكليزية المطعمَة بالدانش، أثناء تأديتها لمهام مجموعة الخَدمات الإنسانية التي تَرأسها، إذ تناقلت الأفواه هنا بعض نوادر «سيغريد مالينوسكي»، الميجر الجديدة التي تَبرُع من خِلالها في تَفكيك الكثير ..والكثير من علامات الأستفهام الطافية حول طَبيعة الناس هنا، حتى إبتسامتها أو (قوس الفم المقعر) تَبث من خلالها تفسيرات غَريبة وغير متداولة عن تاريخ ولغة المكان، ولاعَجب إن كانت تُطيح بالمترجمين وهي تَحشو في مقذوفاتها أخطاء متعمدة، بِقصد الأختبار.

حَيته الميجر من خَلف مَكتبها حينما دخل الى غرفة التخطيطات، هَمس خلف أُذن مادس (واتس آب؟) الذي همس له ايضاً دون ان يحول أَنظاره عن الميجر المسترسلة..(سافية دافية!) أي إن أحواله طبيعية وسماءهُ صافيةٌ دافئة، كما تعلمها من بدوي يرعى جمالاً مُتهدِلة الوَبر في صَحراء الرُميلة الجنوبية، وبعد أن أَوضحت الميجر برنامج المُهمة نادت على مَديّن وسَلمته تلك الورقة الصادرة من مديرية الأَمن السابقة، التي أنفذَها هو إليها، وَأمرته

مكتبة الفكر الجديد

بنَقل الأسماء وكتابتها بالإنكليزية.. ..

ـ (أنا أَعرف بعضاً من هؤلاء) علق مَديّن بعد ان تصفح الورقة بعينيه لِثوان.

ـ جيد...قالت الميجر (وعددهم إثنا عشر).

رَد مدين وهو ينظر الى مادس ..(نعم، بعضهم جماعة أخي. إنهم مجموعة من رسامي جداريات الرئيس).

بعد دقائق..توجهت المركبات العسكرية الى الجنوب وإنعطفت نحو طريق ترابي ضيق يسلك إلى جدران كونكريتية مَكتوب عليها بالصبغ الأحمر(wq-334)، ترجم لهم «ويست كورنة»..مَعنى الحرفين، إنها موقع مجموعة آبار نفطية، أما كوخ القصب هذا.. فهو ليس بيت الحارس كما تحذلق «بْرآسه»، إنه مرقدٌ أو قبر إعتيادي مثل الكثير من مراقد السادة المنتشرة هنا بين الأنابيب والأبار...مِثل «مير أبو الحسنين» و «إمام زكري»[3] الذين شاهدتَهُم في «السيبة» يا «براسه».

مالذي جاء بشجرة عيد الميلاد الى هنا؟، سمع مدين أول فيوضات الميجر السَنِيَة، إستفهمت بِغَنج مُتصنع، عن سِر وجود تلك الـ(دي أي كرسميس تري!!)، ففهم انها تقصد تلك الصمامات المتشعبة مثل الأغصان على رؤوس الآبار النفطية، إبتسم متأثراً لها..

لكن عَجبها لم يرعو..أَشارت بعينيها الى بِئر قريبة، كانت صماماتها تَلتمع من شدة الطلاء الأخضر الذي يبدو إنها اكتست به مؤخراً، كانت البئر الخضراء الوحيدة، وجد مدين تعليلاً مقنعاً يغري به مالينوسكي، أبان

---

3 أسماء أضرحة في مدينة السيبة.

مكتبة الفكر الجديد

بدنماركية بطيئة بأن المعدان هنا فعلوا ذلك لِيرمِزوا الى أَحد أجدادهم المدفون هنا، بالضبط تَحتْ شَجرة رأس البئر!.

تَجمع الأهالي الذين عَرف مدين بعضهم لكونهم قَدموا من البصرة القديمة أيضاً، إَختار مجموعة مِن الأشخاص الذين لا يعرفونه فَسلم عليهم وتحدث معهم، ... إنتشر الجنود في المكان وحينما لَحظ إنهم يهمون بمباشرة الحَفْر تَوجه الى الميجر مالينوسكي..نَظر في ورقة الخريطة التي في يَده..

ـ هنا بالضبط مكان المقبرة ....(قالها مدين وهو يُشير الى الأرض التي يلتصق عليها كيس نايلون يَعبث به الهواء).

(3)

حينما تتَرجل من أي باص خشبي في البصرة القديمة وتمشي هكذا كيفما اتفق ودونما إتجاهات وبعد أن تَنْتابك «الدرابين» وتتلتفت يميناً ويساراً، فلا تَخف من كل تلك الأسهم المعقوفة، إنها مؤشرات مسالمة ستُبدي إهتمامها، حتى إن بعضها سينهي نَوبته في دَرابين أخرى ويَنتزع دِهانه من الأسواق القريبة، ويتعثر بعضها ببعض من أَجلك..كي تَزدحم فوق أكتاف الدَربونَة الزنجية، وتُومئ لك برؤسها المدببة نحو بيتهم / الضريح، سيدفعها الفضول عن سبب زيارتك لدَربونَة في نهايتها قبر مُهمل ومَغمور والحيطان التي تؤدي إليه مَكسوة بالشَعَر.

ضَريح الشَيخ شُوفان ..هناك ...حيث تنحني بيوت الأوادِم بوضع لِواطي مُخجل مُشَكلةً هذا المَسلك الإستثنائي الذي تَضطر فيه النساء الى تقليد «أبو الجنيّب» في المَشي العرضي وهن يَجتزن ذلك الجزء المتضيق من

مكتبة الفكر الجديد

الدَربونَة لخطوتين أو ثلاث، أكُفْ من الحِناء مَدموغة على الحيطان، أصابع بَدينة وأَخرى مَبتورة كما إن بعض البصَمات يتخذ شكل سَمكة ..سَمكة ! في الجزء القريب من الباب.

حين كان (أبوه) يُقضي إحدى سَكناته في سجن الدريهمية التابع للفرقة الآلية الخامسة إبان مَعارك شرقي البصرة الأولى ..بتهمة(تَسييع وعدم تَصويب) السِلاح في عام 1980، وبينما كان يصوب أنظاره من أكبر ثقوب الباب نحو أحد العرفاء وهو يُعلم زُملائه الشطرنج بالبساطيل، فَلمح بسطاله وهو يُستثمر كحِصان أَسود ..يقفز على الكاشي ولا يأبه بالنُعولة المعادية ويختط الرؤوس المجردة من القياطين.

لَحظتها...كانت (أمهُ) تستنطق كتلة البراز التي تمخضت عنها، وأزاحتها خارج حوض المرحاض...وجعلت تنتظر سماع تلك الـ(طِق)، التي تبرهن لها بأن الكُتلة أخذت مسارها الصحيح، دون أن تنزاح إلى مجرى بيت «حميد طبانة» ..وحينما كانت تُقرب رأسها من الجدار الرطب بوضع يُشبه الإِقعاء، لم يسمع (أخوه) صَرختها ..

لأن أخاه كان مَشغولاً بغَرز دُبوس من النوع الأُبري على قَفا خُنفسانة أعجبته تدويرات بَدنها وإلتماعاته، ولما أضجرهُ عدم مبالاتها وهي تمشي كأن سيفاً زنجياً لم يخترق صدَفتها المحدبة، عَمِد الى مَركزة ذلك الدبوس وإدخاله عميقاً، فنال مراده في أن يراها تحرك أطرافها بالتتابع مثل الروبوت الآلي المجهز برادار، نَتف شَعرة طويلة من الجدار..وحينما نَمت الى سَمعه تلك الـ(طق) التي غَفلت أُمه عنها، بتَر رأس الخنفسانة بالشعرة وَرَكض نحو المرحاض كأن تَلك الـ(طق) أثارته أو حفزت فيه روح التجربة المُنْهَكة، (هلو..شلونك) سَلَم على الضريح في وثبة جعلت الطريق إلى المنور الصغير

مكتبة الفكر الجديد

خطوتين، (إز..إز..إز) متجنحاً ينتاب فضاء البيت، (إغ...إغ..إغغ) يحك باب المرحاض بأظافره صانعاً عليه علامة الرقم اللانهائي دون أن يدري!، كأسلوب خاص للطرق، فتحت أمه الباب وهي تقبض على رأس جنينها المتدلي بين فخذيها! ..لم يلاحظ أخوه المشهد..(طق) غالقاً خلفه باب المرحاض بقوه.

إذن، في اللحظة ..اللحظة المتوحشة ذات الرؤوس الثلاثة، دَلَف هذا الـ(هو) الى الدنيا.

سَيفشل أخوه ذو الأعوام الستة في إستيعاب كائن الدَربونَة الجديد، وسيظل يغزو السرير الخشبي للطفل النائم، وينقلب عليه، ممسِكاً بيده بَطاريات مِن نوع قلم مُحرراً الطفل من قِماطه، ينوي دس البطاريات في مؤخرة الطفل، ظناً منه بأن هذا الكائن الجديد ماهو الأ دمية سوداء ! كتلك التي جلبها «حميد طبانة» الى عفاريته الملونة من سوق «أُم البروم»[4] يوم كانت تباع فيه الحاجيات المستهلكة والبضائع القادمة من الكويت.

وسيظل هذا الـ(هو) بلا إسم لثلاث أو أربع شهور حتى تنفض أُمه يديها من طين التنور العاشر الذي تفشل في رصف قوامه اللَيّن وتقرر أن تَستخير القرآن وتستل إسمه من أول صفحة تفتحها او تحسب منها سبع صفحات، فتدخل غرفة الضريح من بابه الذي ينفُذ على المنزل وتُمسك المصحف، وتَفتحه وهي تُتَمتم بالبسملة، لكن الباب الآن يُطرَق بضراوة، بسرعة متصاعدة، ودون ان تَقرأ الصفحة دَست فيها خشبة عود بخور مُنْقَضي، وفتحت الباب لترى حميد طبانة..

ـ مُلايَة ..أريد تآخذين الي خيرة، عندي شغلة مهمة .

4 سوق ومرآب وسط العشار يلتقي فيها الغرباء ويمر بها الداخل والخارج من السوق.

مكتبة الفكر الجديد

فتُخبره بأنها غير مُتوضأة الآن، وهي لاتعلن عن نزاهة مهنتها في الاستفتاح بالقران بل هي لاتفتحه حقاً الأ وهي متوضأة أو مُبللة، لكنه يلح عليها، فتقول له: إفتح أي صفحة من ذلك المُصحف على الرَف، وَضَعْ فيه عود بخور مُنقضي من الحائط، وَتدخل الى البيت لِتعود بعد لَحظات وهي مُبتلة، وتفتح المصحف من العود الذي وضعته هي قبل لحظات ..(زينة خيرتك زينة)، وتسأل حميد طبانة عن هذه الشغلة المهمة..فيجيبها:

ـ شَغلة مهمة ..مهمة مُلايَة...شنو طلعلي مُلايَة.

ـ طلع لك في الأية «وشَدَدنا عضدك بأخيك».

ـ يعني شنو مُلايَة؟..انا اريد ان اشتري حمار!

أَخبرته بأَن هذا الحمار سيكون وَفياً له، فأختفى حميد طبانة مثل وَمضة، وعادت الى المصحف وفتحته من العود الذي وضعه حميد طبانة ..فتمتمت (رحمانك يارحيم ...والى مَديَنَ أخاهم شُعيبا..)، فقررت ان تُسَمي وليدها الجديد (مَدْيَّن).

(4)

أَمرت الميجر الجنود بِبدء الحفر، وأَوصَت «مادس» بأَن يسجل بورقة ما سيتبقى من الهياكل أثناء تسليمها إلى الأهالي، لضبط الحساب ولإقناع هذه الجموع كما قالت، فَكتب كلودن في ورقته the remainder of skeletons اي الهياكل المتبقية، ثم باشروا الحفر وفي ظَرف سَبع دقائق تم تظهير (خمسة) هياكل.

وهنا إقتربت الميجر من «مادس» وزميله «بْرآسه» وأمرت مدين ان

مكتبة الفكر الجديد

يراقب (هذين الغبيين!) فتذكر مدين بعض ما يقال عن وجود سوابق لهما في تبديل الفتات العظمي وإعارة الحاجيات الصغيرة الخاصة بهيكل ما الى هيكل آخر، كما حدث في مقابر جماعية أخرى في وسط المدينة.

تقدم الأهالي لإستلام هذه الهياكل،أعطى مادس مُفكرته الى مدين بعد أن كتب فيها ..الهياكل المتبقية:اثنا عشر، سبعة.

على مقربة خمسة أمتار من حفرة الرسامين عثرَ الجنود على جثة إمرأة حديثة الدفن ... أَخبرهم مدين بأنها «الست زكية» مُعلمته في المدرسة الأبتدائية، وقبل ان تُفَرق الميجر تلك المجموعة وتأمرهم بمواصلة تخليص الهياكل التفتت الى مدين...(اير كفينه بيكراويلس فيرتكلي[5]؟)، قالت الميجر..التي ستخبر مدين فيما بعد بأنها ستؤلف كتاباً عن مكوثها هنا ستعنونه مستفيدةً من مشهد هذه السيدة المدفونة حديثاً بـ(سانتا كورنه) .

بعد لحظات، أوعزت الميجر لِمديَن بان ينادي على مجموعة الرجال هناك على التَل، ليتَسلموا هذه الهياكل الثلاثة التي تم تخليصها من الحفرة، فكتب مدين في العمود الذي عنونه كلودن ليصبح شكله ...الهياكل المتبقية:إثنا عشر، سبعة، اربعة...

بينما كانت الميجر تُسجل الهياكل المُسَلمة الى الأهالي في مفكرتها المنقوش على غلافها H.S 2004، بعدها ..قالت لمدين بان يسأل تلك السيدة العجوز التي اصطحبت معها بنتاً صغيرة ..إن كانت لها علاقة بهذين الهيكلين الذين تم تظهيرهما..فدَونَ في ورقتة فبدا عمود الهياكل المتبقية هكذا...اثنا عشر، سبعة، أربعة، إثنان..

وحال إقترابه من السيدة العجوز، فَتَحت العجوز وهي تتقدم نحوه كيساً

5 (وهل تدفن النساء هنا بشكل عمودي؟)

مكتبة الفكر الجديد

أبيض مطبوع عليه باللون الأزرق (معمل طحين الميثاق) وناولته إلى البنت الصغيرة وبثقةٍ تامة عبأت احد الهياكل في الكيس وأعطته الى الصغيرة وهي تُجرب النهوض، فإحتضنت البنت الكيس كأنها تريد ان تُرضِعه، مزهوةً بأمومتها المرتقبة، وسَيتبين لِمدين من خلال ثرثرات الجموع بأنها كانت تَحتضن جَدها، أما الهيكل الأخر فقد تَقدمت إمرأة عجوز أخرى قالت له بأنها أم (سعد سوادي) وهي تشير الى الرُفات، وحينما رَمت نفسها عليه وأَخذ نحيبها يقترب في احد مقاطعه من صوت الضحك، تذكر مدين بأنها هي ذاتها العجوز صاحبة العمامة التي وزعت الهيل على ركاب سيارة الدولفين.

بَقيَّ هيكلان...طرحهما الجنود على متن الحفرة ووضعوا على احدهما هوية أحوال مدنية انتزعوها من مشبك أضلاعه، ووضعوا فوق الهيكل الأخر ورقة مُربعة زرقاء، اقترب مدين منها، شرح لهم بأنها نصف عملة المائة دينار النقدية القديمة وترجم لهم منها (ورقة نقدية صادرة بموجب القانون 1994)، هذا الشاب تعلم رسم الرئيس من أخي..اخي يعطي للمتدربين «مئة دينار» ليتمَرنوا على وجه الرَئيس في المَرسوم على صَفحتها...

تقدم الدكتور «كمال روضان» احد أَبرز أطباء العيون في البصرة وأوضح لمدين بان الهيكلين لأَخويه الذين كانوا قبل الأعتقال طلبة في معهد الفنون الجميلة، أضاف مدين في نهاية العمود :صفر، ومَد خطاً افقياً تحت عمود الأرقام وكتب مجموعها.

بَدت على الميجر الأن أعراض نهاية المهمة:تَلويحات، إبتسامات، العاب نارية تنبثق من وجهها، وهي تنظر الى الناس وهم يتوزعون وينسَلون

مكتبة الفكر الجديد

نحو الشارع العام ..قالت لمدين مع (قوس فم مقعر): (هي تول أي كوس..توليت؟[6])، كرر جملتها هذه في عقله..(اثنا عشر أليس كذلك؟ ..المجموع).

أغلقت مالينوسكي مفكرتها واضعة قلمها في خانة الأقلام على زند بَدلتها وهي تومئ للجنود بالتجمع...

ـ ثلاثة عشر ..

قالها مدين وهو يرفَع من نبرة صوته محدقاً في ورقته والأمكنة التي طرحت عليها الرفات والحفرة الفارغة ....

سَمعه كل الجنود..بدا «بْرآسه» المتعب فَزِعاً، صرخت الميجر..(فدن سكي دي دين كلو سيندباد[7]؟).

ستظل كلمتها هذه تعبث بدماغ مدِيَن طويلاً كما تعبث رياح البصرة بالعلب الفارغة، دققت الميجر في ورقته ومفكرتها ... مادس و بْرآسّه تلمظا ببراءة، هناك رجل زائد! ...كما سيلح مدين عليهم ..سيصرخ وسيبكي،(دي اير أين مان مير)[8]، حينما لايرى من ينتظر الهيكل الإفتراضي لهذا الرجل، لم يبقَ احدٌ من الناس، هناك رسام آخر يقطن البصرة القديمة كهؤلاء سيظل يبحث عنه ويُدوخ به الجميع ...هذا الرسام المَنكوح من كل ثقوبه الرقمية.. هو « أنا ».

---

6 (اثنا عشر أليس كذلك؟ ..المجموع).

7(كيف يحدث هذا ايها السندباد الذكي؟).

8 (هناك رجل زائد).

مكتبة الفكر الجديد

(5)

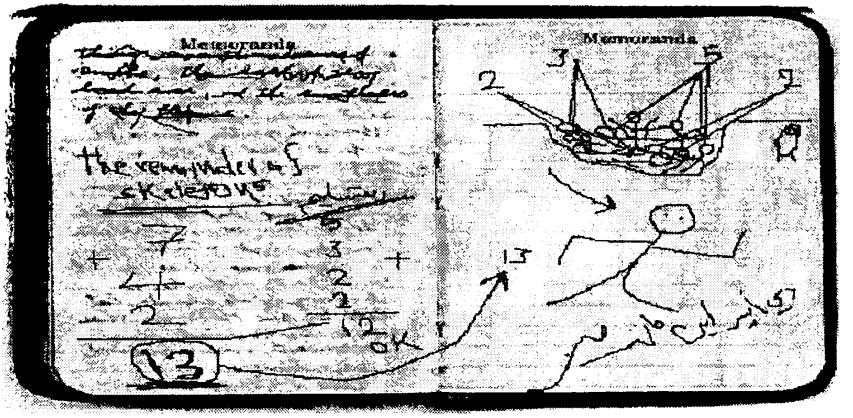

(6)

تَحويل الأرقام الى أشكال ووجوه كانت من هوايات مدين ووداد، هكذا...بخطين صغيرين ونقطة يتمكن وداد من تحويل رقم ثلاثة عشر الى وجه جانبي، ..كنت أمقت هذا الرقم مع الأرقام الفردية الأخرى القريبة منه، ولا أتصور بأَني اشبه هذا الرقم لابنسخته الهندية ولا بنسخته العربية، لايمكن لنقطة ما ان تصف الزرقة في عيني، وأي خطوط تصف بياض شعري! ...كل خرائط الأرقام والحروف والآبار لن تَدل هذه الدمية السوداء على هويتي!.

ربما زَحف الى قَلبي مقت ذلك الرقم من أُستاذ الرياضيات الهندي، الذي كان لايلفظ او يكتب ذلك الرقم أبداً، كان يعلمنا ان نقول في مدرسة «الملك فيصل الإبتدائية»..عشرة، أَحد عشر، اثنا عشر أي، اثنا عشر بي، اربعة عشر، خمسة عشر..

مكتبة الفكر الجديد

أَنتمي الآن الى عالمٍ مُستحيل، يمكن ان يُدرك في الأوراق فقط، وستدركون بأن هذا تجسد من تجسّدات العَبث الذي إرتكبته مع عائلة حَياوي، التجسد الذي أصبح مؤلماً ..يحركونه كأي جُثة في أقلامهم وأفواههم وعندما يلم الناس أَجزاء ذويهم من الحُفرة، ولايَسأل عني أحد، أظلُ عالقاً في قائمة مدين ويَسأل عني الأهالي، يَئن وينّحب، وأضحك أنا حينما أَسمع بأن نسخة مني أُكتشفت في مسقط رأسي .

يتتبع الجموع المُتأبطة باجساد أبناءها ويسأل الناس..(هل بقي لكم احدٌ في الحفرة؟)،(هل تعرفون رسام جداريات قُتل مع هؤلاء ولم يَسأل عليه أحد)،(سبعة زائد اربعة زائد إثنين يساوي ثلاثة عشر يا أوادم ...صح)،(ولكن الهياكل إثنا عشر فقط)،(قائمة حسابي تقول هكذا... انظروا الى مفكرة مادس).

يَلتف عليه رفاقه الدنماركيون، يُحاولون اقناعه بأنها شبهةٌ رياضية، يضربون له عشرات الأمثلة، يسيل منها عشرات الرجال الزائدون من أمثالي، يقولون له ..أنت جمعت «ماتبقى» فَفَلت منك هذا الكائن بالصدفة أو بدهاء الرقم (12)، لكنه يبقى مختنقاً بشهقته الحزينة، ترسل مالينوسكي خطاباً الى مقر القيادة البريطانية في القصر، وتضمن ماحدث كمزحة عسكرية تقليدية، تحرر الرسائل الى «آرهوس»و«كوبنهاكن» و«يولاند» حيث عائلات الجنود المقتولين في البصرة، تُذيل تعاطفها بحكايتي، لأقرأ انا قصتي في موقع زوجات الجنود الألكتروني..

يتَجول مدين بزيه المدني في خيمات عَزاء الرسامين ويفر منها حينما يتذكرني، السؤال عني وعن شَكلي وأوصافي يَحبسه في طرف لسانه، وأحياناً

مكتبة الفكر الجديد

يغلق فمه بيديه، وتَخطر في باله فكرة مجنونة، لا أَستغربها عليه ولا على أفراد دربونتهم، فقد آلمه كما يدعي!بأن يرى صور الرسامين الضوئية منشورة في الشوارع، ولايرى صورتي بينها مع صور الشهداء والعلماء، التي طفت فجأة على سطح المدينة بعد غرق جداريات الرئيس...ولو كان يجيد الرسم مثل اخيه لجرب ذلك الـ(القرية المشؤومة) أن بـ سمني..

يجد نفسه تَحت جسر المشاة ، يبحث عن «أبو ثورة»، المصور الشمسي القديم، ظِل الجسر الخالي أَشعره بالنعاس، تحسس الجدران الباردة، عثر فيها على مربع كبير تَختبئ أَضلاعه بين الشقوق والألوان...هنا كان أبو ثورة يُعلق ملاءته السوداء إذن!، سَأل أَحد المارة عن «أبو ثورة»..

ـ تقصد «ابو رحمن»....

تخيل نفسه للحظات عائداً من الدنمارك بعد عشرين عاماً يسأل عن معارفه، يَتقصى أسماءهم وأشكالهم ويتحرى عن خرائط عناوينهم، تَقمص ما حفظه من حكايات عن تصرفات العائدين الى البصرة، رغم إنه لم يغادر حتى حدودها الإدارية القريبة...

«أبو ثورة» تغير اسمه الى «أبو رحمن» وفقاً لقائمة التغييرات اللفظية التي استحدثت بعد «السقوط»، وانتقل الى ذلك المحل في رُكن الشارع، سَحبته الصور ببريقها الى الواجهة على بعد خطوات، إنتظر ان يخرج ابو رحمن من غرفة التصوير، تصفح بعينيه وأصابعه بعض الصور تحت الزجاج وعلى الرفوف، لازال يؤدي إحساس العودة بإتقان، خرج أبو رحمن من الغرفة وحده، لا ادري عن تلك الثرثرة التي قدم بها مدين نفسه، المهم ان ابو رحمن تذكره..وضحك.

ايهما أنت، الصغير أم الكبير؟. الصغير. أريد أن تجلبوا لي افلام البوسكارت

مكتبة الفكر الجديد

التي سرقتموها. لم نسرقها كانت صورنا. صُوركم بلا تَحميض. أمي تحبنا هكذا وجوهنا بيضاء وشعرنا أسود. كان يجب ان تنتظر أُمكم حتى أَحمض الصور وينعكس البياض على السواد. أضفنا لها ملح الطعام كما أوصيت. أمك كانت تمسحها بِعباءتها.

ضَحك الرجل وحده، سأله مدين عن كاميرته القديمة، قص عليه الرجل بأن تلك الكاميرة إشتراها من المصور الأرمني الذي يجلس تحت «ساعة سورين»، الذي انتسب المكان اليه حتى هدمت الساعة منذ عقود..

ـ اتمنى الناث يثمون هذا الجثر جثر ابو رحمن..

إِستطاع مدين أَن يضحك وهو يسمع صوت أبو رحمن، إِنتبه ان للرجل صَوتين يخرجان من ذات الحنجرة، آخرهما ناعم لا يمر على اسنان السين. مرر مدين اصابعه على الكاميرة الخشبية القديمة، ثم أدخل راسه في المغارة السوداء، قال للعجوز وهو يحرك راسه في الداخل..(سأحصل على لجوء في الدنمارك)[9].

طلب منه كل الصور القديمة التي تخلفت من عمله تحت الجسر، تأوه «أبو رحمن» بصوته الأول ثم وافق على بيعها له، فتأبط مدين بعد لحظات، صناديق أرشيف تلك العلبة الخشبية، وجه كل من هَرب ولم ينتظر حتى يرى صورته بعد التحميض، وجوه غافلت «أبو رحمن» و «أبو ثورة»، وفَرت منهما قبل ان يخرجا رأسَهما من الكيس المُعتم، ربما كنت أنا احد هؤلاء في مخيلة مدين، فزعت من رؤية تسريحة الكاري القديمة، او من تسريحة الخنافس الأَقدم، ولم أَحتمل منظر عيني المغمضتين بتاثير الوميض الخاطف..

9 منحت الدنمارك حق اللجوء لـ308 مترجماً مع اسرهم ممن عملوا مع الجيش الدنماركي في جنوب العراق بعد أن اصبحوا هدفاً للجماعات المسلحة.

مكتبة الفكر الجديد

نَشر الصور على الأرض، وإنحنى عليها، صَنفها الى ازمانها وفقاً لموديلات الياخات والتسريحات، المَجموعة الأولى ..شباب ربما مات كلهم او أَصبح طاعناً في السن الآن، يرتدون ستر وجاكيتات غير متناسقة الألوان، أو يظهرون بياخات دشاديش بيضاء، فكر بأن اسماءهم لابد ان تكون جبار وحسون وعبد الستار وكزار و عبد الرزاق و عبد الحسن وموزان وكتبة و بدرية و عواطف وعايد.

المجموعة الثانية من الأطفال الذين تبدو احياناً اصابع أُمهاتهم وهي تسند جلستهم المرعوبة في الصورة، تخيل ان أسماءهم ..حيدر وكرار وعلي ومرتضى وزين العابدين و فرزدق وبسام وأساور وتقى وزينب و زينة ورشا.

لَمعها، إنتقى منها صور أصحاب الملامح والظلال الحادة، اَدخلها في جهاز الماسح الضوئي، أربعة أربعة، خزنها لديه في حاسوبه المحمول، غادرته شهقات البكاء المرة، كأنه عثر علي وحبسني في حافظاته الألكترونية، وارتاح، كإنه خاف علي من الضجر والضياع في تلك الوجوه المجهولة، لذا قرر ان يحتفل بي ويجعلني آخر صنيعة له في المدينة، قبل ان يغادر مع القوات الدنمركية ...

شارك الجميع بإختيار صورتي الضوئية المَزعومة التي سَيعلقها مدين في احد الشوارع الرئيسية، «بْرآسّه» إختار لي رأساً مزوراً، و«مادس» رَفع خيشومتي بضع مليمات، وثلاثة مترجمين عراقيين مَنحوني شعراً اسوداً، لايشوبه شيب الحقيقة التي إشتعل بها رأسي الأصلي.

هكذا رمَمني مدين، وإلتقط وجهي قطعةً قطعة، وسلط على جبيني ضوءاً ساطعاً لأكون ذو غُرةٍ بهية، يتحسر المارة على شبابي ويقرأون الفاتحة!.

مكتبة الفكر الجديد

بَرّوَز جداريتي الضوئية الكبيرة، وعلقها في ليلة حالكة الظلام، فأستيقظ الناس في منطقة «الحيانية» على صورة إنسان مُطعم أو هَجين، لا اسم له، وأَبعاد وجهه غير مضبوطة، لكنه حزين.

(7)

يبْعد محل الموسيقى والأفراح في مَحلة السيمر ثَلاثة كيلومترات عن مدرسة ثمانية شباط الأبتدائية، والتي تبعد ثلاثة كيلومترات أيضاً عن محلات الزجاج والمرايا، أما محل الموسيقى والأفراح الذي تدرب وداد فيه على عزف الكمان فيَبعد خمسة كيلومترات ونصف عن محلات الزجاج والمرايا...

(كنا نعيش داخل ذلك المثلث)، قال لي وداد ذلك ذات مرة، كان يستخدم اداة قطع الكتب المعدة للتجليد، ويقص مجموعة من الكتب السميكة من زواياها، ويفصلها على شكل مثلثات، ويقول بأَنها هوايتي القديمة، كان يرسم في كل صفحة من صفحات المثلث ويورقها، ويطلعني على الفيلم الكارتوني الذي أنجزه بثلاث دقائق.

يَتذكر آب عام 1986، يوم صَنع المثلث الأول، وقدمه الى «نَورَست»!، تَصفحته وضحكت، ونصحته أن لا يفسد الكتب، وان يحصر شخصياته في الهوامش، كي تبدو أوضح.

نادتها مُلايَة من بعيد، وضعت المثلث في حقيبتها وصعدت على الكرسي، أخرجت كيساً من النايلون وغرزت اصابعها في جص الجدار، إسبوعاً كاملاً استغرقته نَورَست في اقناع هذه المرأة كي تسمح لها بنتف هذا الشعر الممتزج بالجص، تذرعت مُلايَة بأن حَياوي سيوبخها وان صاحب الضريح

مكتبة الفكر الجديد

سيلعنها، لأَن نَتف هذا الشعر سيطيح بأكف الحناء التي ختمتها النساء على جدران الدَربونَة.

الشعرات الطويلة فقط، تنفصل عن الجدار الرطب بمتعة، رغم إنها تُكسر قشور الأصباغ المتراكمة، وتَهدم بعض الشقوق الصغيرة.

اِنتبهت المرأتان إلى مدين وهو يُتابع نَتف شعرة طويلة ملونة أسفل الجدار، كورها وصنع منها لفافة صغيرة، وقبل أن يدخلها في فمه، ترجلت مُلايَة عن كرسيها الذي كانت تقف عليه، ورفْعَت مدين وهي تربت على مؤخرته العارية، وأدخلته إلى غرفة الضريح، أَغلقت الباب فَخفت صوت بكائه، ثم صعدت على كرسي نَورَست التي جلست لترتاح وتمسح الغبار الأبيض من وَجهها.

المَرة الأولى التي وَطأت فيها نَورَست أعتاب دَربونَة العبيد، لايتذكرها احد سوى « أنا « وهي ومُلايَة، نفضتها سيارة أجرة وباص خشب ..هنا، لكي تخذلها عشرات الأسهم المعقوفة التي تؤشر برشاقة:من هنا مرقد شوفان، رفْعَت أطراف تنورتها وعبرت ساقية المياه السوداء الأسنة، الأ إن رقصات الأسهم بدت اكثر عنفاً وهي تصل الى رأس الدَربونَة ذات النهاية المغلقة بباب الضريح ومنزل حَياوي ومُلايَة ومدين ووداد.

أَعَدت بالطبع ما سَتقوله لهذه العائلة، وربما كتبت وتدربت على كل الحوارات المفترضة والشتائم المتوقعة.

أب عسكري لايتردد كثيراً على البيت، صَياد قديم، واحياناً عضو في فرقة موسيقية، جسمه مخطط بأوشام وعلامات، توصلت بسرعة الى فكرة اهدائه اشرطة مسجل، لمغنية ريفية صاعدة، احضرته في الزيارة الثانية، لترى اشرطة ذلك الكاسيت في الزيارة الثالثة منشورة بين أسلاك الكهرباء، يعبث

مكتبة الفكر الجديد

بها الهواء، او عالقة وملتفة بين ارجل الصغار، اما فضول السيدة سادنة المرقد التي تجيد القراءة، فأمكن كبحه بعباءة حالكة السواد.

سَتَستمر حَملة جَمع الشَعر وقتاً طويلاً، يكفي لبرود تلك الرِفقة الجديدة، وسَيتسرب الفراغ الى روحَيهما وهما مُعلقتان على الكراسي، وتزفر مُلايَة اسئلتها المكنونة، فتبيح لها نَورَست بالمفيد، وما اسعد مُلايَة في تلك الظهيرات القائظة وهي تقول لجاراتها ..بأن نَورَست صديقتها، تلك الفتاة التي تشغل عيونها ثلاثة ارباع وجهها ..رسامة تنوي إقامة معرض من لوحات شعر الرأس.

حملت مُلايَة الكرسيين، تأبطتهما، وظلت نَورَست تراقب قفاها وهو يتأرجح، فأضحكتها تلك الخنفسانة التي تولدت من مشيتها، عادت بسرعة وهمت بجمع الطابوق وكل وسائل الصعود الأخرى التي تخلفت من مهمة اليوم، لأن بنات حميد كما زعمت، سَينصَحن الشباب بتسلق حياطين بيتِهم من هنا.

وهي تُلملم أَغراضها المُعلقة بين الأكف واكوام الطابوق، إنتبَهت إن لون المياه في السواقي أصبح قاتماً وأميل الى الحمرة، فتذكرت ازهار «المينا» في حَديقة بيتهم، رأتها تتحول الى اللون الوردي هذا الصباح بعد ان كانت صفراء طيلة الصيف الماضي، ولن يَستمر هذا اللون حتى اكتوبر القادم، المينا تتهيأ للون الأحمر، خططت لإلتقاط صورة امامها قبل حلول القتامة.

وجدت نفسها امام الشارع الرئيسي، فعبرت الجانب الأخر، وقبل ان تقف قرب جامع البصرة الكبير، ازدحمت عليها ثلاثة سيارات اجرة، خفضت رأسها وانتظرت حتى يمر ذلك الضجيج، رِفْعَت يدها قليلاً ..كما إعتادت ان تؤشر للتاكسي.

مكتبة الفكر الجديد

نَورَست تحرصُ دائماً على ان تؤشر للسيارات وهي تقبض بإبهامها على منديل، رغم إنه ينكمش في يدها ولايبدو منه شئٌ للعيان، الأ انها تشعر به يردم عيوبها، ولاتكون جالبة للانظار الأ به، لم يحدث ان نسيته او ان وقع من يدها، انه ينعدم بطريقة واحدة لاغير، ان تَتَعرق عليه ليتضاءل في كفها، رافقتها تلك العادة مع ما رافقها من دستة عادات يوم كانت طالبة في ثانوية الخنساء في الخربطلية، منذ ثمانية عشر عاماً، تصبح نصف تلك الخنفسانة التي رأتها في قفا مُلايَة والكراسي، في احد انصاف جسدها، حينما لايكون منديل الورق في يدها، وتمشي كمخبولة.

في الشتاء كانت تتباهى بأن يدها اليمنى ذات المنديل ..دافئة جداً مقارنةً بيدها اليسرى، تخلع حذائها بين جمهرة الطالبات ليتأكدن بأن قدمها اليسرى ابرد من قدمها اليسرى، حتى قيل ..اسمها يعني الربيع في اللغة الفارسية او الكردية، نِصفها دافئ، ونِصفها بارد، ما هي؟

اِستيقظت على نغمة بوق غاضبة أطلقها سائق البرازيلي الزرقاء، وخجلت اَن تتفاوض معه على المكان والأجره، اكتفت بمد رأسها بعجلة من نافذة المقعد المجاور للسائق، فاصطدمت شفتاها الملونتان بحافة الزجاجة، كانت قد اوقفته طويلاً وهي ساهية دون ان تدري، فتحت الباب وركبت، سمع منها اسم المكان بعد ان كررته مرتين، لاحظت ان ذلك السائق رغم انه لم يبلغ الثامنة عشرة من العمر، لكن وجهه يتحرك مثل وجوه الرجال.

هناك سلسلة فضية تتدلى منها مدالية سيف ذو حدين، معلقة في عنق مرآة السائق الداخلية، لم تكن تريد النظر الى أي شئ قريب من تلك المرآة كي لايظنها ذلك الشاب تنظر اليه، فشغلت نفسها بالنظر الى ساعتها واكياس الشعر، ايقظها مرة اخرى صوت سائق اخر يصيح على سائقها (سلوان..

مكتبة الفكر الجديد

سلوان)، فأشار له سلـــــوان بيده وابتسم، ونسي ابتسامته في وجهه لدقائق.

في المرات القادمة التي تقصد فيها الطريق المؤدية الى تلك الدَربونَة، ستصطاده مرة اخرى وتمد رأسها بعجلة ايضاً، صادمة الزجاج بشفتيها، واحياناً تراه هو، كأنه عرف مواعيدها، او يفشلان في ميقات الصدفة، او أن تركب سيارته لِتجد وجهاً مسناً يطل عليها من المرآة المتقلدة لسلسلة السيف ذو حدين، فتعرف بان ذاك كان وجه أَبيه.

(8)

سَألتها مُلايَة مرة اخرى عن مَوعد معرضها، وكم بقي لها من الوقت، فانتظرت ان تقف مُلايَة لكي تجيبها، لان مُلايَة تمشي وهي تتكلم، ولا تتكلم حينما لا تمشي!

أخبرتها نَورَست بأن معرضها سيقام في عيد العمال وبالضبط في3-4-1982، ضحكت مُلايَة، ومَشت قليلاً لكي تقول لها بأن المعرض سيقام قبل اربعة أعوام إذن!

وأَكملت ضحكتها وتظاهرت نَورَست بوجه متحامق، وكأن مُلآية صدقت بأَن تلك الرسامة لا تدري بأي عام هي.

إستجابت مُلايَة لصوت حَياوي المنبعث من قلب البيت، وقبل ان تترك مُلايَة الدَربونَة وتدخل البيت ادركها ذلك الصوت.(آني ادري احنه بعام 1986).

عاد حَياوي في الأيام الخمسة الأخيرة من ذلك الـ(تشرين أول)، وعليها

مكتبة الفكر الجديد

ان تهدي اليه قبل ان يلتحق بالجيش الشريط الجديد الذي اشترته خصيصاً له، كانت تعرف بانه سيتذاكى كما في كل مرة ويقول لها بانه سمع هذه الأغاني او عزفها في طلعته البحرية الى كذاستان!.

فاجأها إن حَياوي لم يسأل في ذلك اليوم، ولم يعلق ايضاً حينما اضافت له بان هذه المطربة التي اهدته احدى حفلاتها في الشريط الأول..هي احدى بنات هذه المطربة في هذا الشريط، ولم يتفوه بشئ وهي تؤكد له بان هذه المطربة وبناتها من الغجر وليسوا من الريف.

دَس الشريط في جيبه وأنصرف تاركاً نَورَست مع علامات إستفهام مُلايَة المتمادية في تقوساتها، والغريب ان تلك لم تهم بسؤالها عن معرضها وعن أَسباب هَلْسها لكل هذا الشعر القديم في الجدران، وكأنها تعمدت ان تبقي المكان هادئاً وخالياً من الأصوات، كي يَمر منه صوت واحد فقط، وبعد أن توثقت من تشعبه في الأرجاء، سألت نَورَست ان كانت تعرف هذا الصوت...

ـ صوت كمان طبعاً..

ـ أي ..هذا إبني وداد...ابوه اشتراله «كَمنجة».

خَفت صوت الكمان ليعلو صوت بُكاء مدين..إمتزج الصَوتان معاً، سكتت نَورَست وتجمدت أصابع مُلايَة، ثانيتين أو ثلاثاً و تكلمت مُلايَة، نَورَست..زَفرت الهواء المكبوت في صدرها مع عودة أصوات العائلة، عَرفت مُلايَة إن مِدين الصغير ينازع أخاه الكبير وداد على آلته الجديدة.

إشتراه له أبوه منذ اسبوع، ولم تنطفئ بعد لهفته به، كان يعزف في كل ساعات النهار، ويستيقظ قبل الفجر ليقلد اطوار البحر والأهوار الغنائية، ولأنه يعزف ببراعة بالنسبة لصبي في الثالثة عشرة، فان مُلايَة كانت تخشى

مكتبة الفكر الجديد

عليه من الحسد ولا تسمح له بالخروج من حدود الدَربونَة، وتنسب بأصابعها تلك الأصوات التي يجرفها الهواء عبر الشبابيك.. الى ابيه .

إشترى حَياوي ثوباً أَسود لمُلايَة وقطعة قماش منقوشة بأزهار حمراء وبيضاء وأوصلها بنفسه الى نَورَست، فتوصلت نَورَست (رسامة عيناها أكبر من قارب الصنبوب كما يقول عنها) إلى إن سَخاء هذا الرجل في هذا الشهر مَدعاة للتساؤل، واشتكت لها مُلايَة من إن زوجها صَرف عشرين ديناراً خلال ايام ثلاثة ..ولم يَتبق سوى يومين من إجازته.

إشترى ثلاثةً ديكة، سيقانها مُحززة جراء ربطها بالخيوط وأعرافها ذابلة من العراك، وخَلص حميد طبانة من حمارته الأخيرة وربطها في رأس الدَربونَة، وابتاع حقيبة جلدية جمع بها اوراق العائلة الرسمية، واكواب فرفوري، وأعواد عطور كشميرية فرقها على أَصحابه، وقارب لنج صغير أخشابه مَدهونة بالطحالب، بعشرة دنانير من أحد حراس قصر عويد.

لن يحصل حَياوي على مبلغ مثل هذا خلال الأيام المفترضة الباقية من عمره، كما لم يحصل على مَجموعه في أي شهر عاشه من حياته.اذهل نَورَست ان تشتكي مُلايَة من بذخ زوجها، وان تقص عليها قائمة بمصروفاته وتلك التي طرأت عليه، دون ان تدلي لها بحرف واحد يلمح بمصدر هذا المبلغ، فصارحت المرأة بذلك واشترطت مُلايَة ان تخبرها أولاً..كيف عرفت بموضوع الشعر على حياطين دربونتهم ؟، فابتسمت نَورَست واظهرت بوجهها علامات قبول ذلك الشرط.

يا «مَحفوظة السَلامة»...هكذا بَدأت قِصتها، عِبارات كالفواصل، ومقاطع صغيرة، تبدأ وتنتهي ببَلع الريق، ولم تنجح..مع ذلك، حتى أَلحان سرد الحكايات التي تجيدها مُلايَة في أن تصغي نَورَست، ..أن تصغي

مكتبة الفكر الجديد

نَورَست!!!، لم تصغ نَورَست في حياتها، نَورَست لاتصغي أَبداً، أَعتقد بأنها تختزن المسموعات فَي منخفض ما من مُنخفضات دماغها وتسترجعها وقتما تشاء، لكنها تُومئ كما يؤمئ التلاميذ مُتظاهرة بحُسن السماع.

(9)

نُقِل حَياوي من وحدته العسكرية في مدينة العمارة، هو والكثير من جنود الفرقة الألية الأولى، أَلْحِقوا بالفرقة الحادية عشرة، في «أَبو الخصيب»[10]، التي نَفشت الخنازير جسوم رجالها ـ كما تصور مُلايَة ـ بعد أن سيطرت القوات الأيرانية على «الفاو»[11].ثلاثون ضابطاً وجندياً من فرقة الأعدامات كانوا يطوقون من الخلف تقدم هذه الفرقة نحو الفاو، ثلاثون ذراعاً يمنى مزدانة بشارات حمراء تتعقب جنود الفرقة ممن يتأخرون او يفرون أو يعصون الأوامر، لينفشوا رؤوسهم بالرصاص، (حَياوي زوجي عبد جبان، يقول بانه لايريد ان يقتل احداً، مع ان ماءه أثقل من الشوربة..)، أمروه بالتحرك مع خمسة مشاة لقذف ربية ايرانية برمانات يدوية، تقدم شركاؤه الخمسه وبقي هو متوارياً بين القصبات والشجيرات، كرر إدعاءه على نفسه..لايريد ان يؤذي احداً، رأى اجزاء حمراء في لون عاصفة الأنفجار، الذي خلفته اربعة رمانات، التل الذي تَعَرَشه الأيرانيون تَفتت بالكامل، رَكض شُركاء حَياوي عائدين، دفعه أحدهم بإتجاه الرَبية، إنفصل سواده عن الوان الخمسه

---

10 بلدة قديمة وإحدى أقضية مدينة البصرة تطل على شط العرب.

11 تقع شبة جزيرة الفاو عند مصب شط العرب، كانت مسرحاً للعديد من العمليات العسكرية خلال الحرب بسبب موقعها الستراتيجي و أحتلت من قبل ايران عام 1986 م وتم تحريرها عام 1988م.

مكتبة الفكر الجديد

المزهووين بنجاح المهمة، بقي يرتجف وحده حتى صعقه صوت العريف يأمُره برمي ماعنده من فاكهة خاكية، لَمح الشارات الحمراء تتحرك ببطء في حافة الأفق الأخضر، هرع خلف رفقاءه، وبحث بيديه عن مكان غير مأهول يصلح لهذه الفاكهة، بينما هو يركض خلف شركائه..

كان صوت العريف لايزال يئزُ رأسه بالشتائم، انعطف نحو بركة صغيرة ظللتها أشجار النبق، رمى فيها رمانته، سقط في بركة مجاورة، سحبه ضغط الأنفجار الى داخل الماء، تحسس من اطرافه وتأكد من ارتباطها به، تعلق بضفاف البركة، ولاحظ ان البركتين قد اتصلتا ببعضهما بفعل الأنفجار، ابتسم بوجهه المنغمس بالماء، وفرح بنجاته من فرق الأعدام ومن تأديته للمهمة دون ان يؤذي احداً، كأنه ضمن ان لا يلاحقه لقب فاضح او سمعة سيئة، كما ان بَراطم ضَميره الغَليظة لن تَقضم أُذنيه من التأنيب، ولا أَرواح مَوتورة تطاردهُ في مَنامه.

أَخرج تفاصيل جسمه من الماء تباعاً، تمكن من الوقوف وهو يلعق بعض الجروح في اصابعه، ثلاثة من رفقائه مع العريف عادوا اليه لينتشلوه من الماء.

هَيّأ له العريف كتفه العريضة ليستند عليها، إلتفت حَياوي الى البركة وهو يضحك بنبرة مَبحوحة..فأبصر خمسة ضفادع بشرية إيرانية تطفو على وجه البركة، لازالت افواههم الفارغة تغرغر، عَلق العريف بأن هؤلاء حبسوا انفسهم داخل الماء دقائق طويلة.

في صباح اليوم التالي اخبرهم آمر الوحدة بأن عليهم ان يجمعوا حصادهم من خوذ الجنود الأيرانيين، لان الحكومة ستجمعها في شبكة كبيرة وتضمها

مكتبة الفكر الجديد

الى تمثال سيف النصر في بغداد، وسيحصل كل مقاتل على أَربعة دنانير عن كل خوذة، فقبض حَياوي على مبلغ عشرين دينار.

(10)

نَورَست. أَبلغت عني في ذلك اليوم، أَوفت بشروط مُلايَة واخبرتها بان عمها هو الذي قادها الى هذه الدَربونَة، ولاتعرف كيف علم هو بأمر الشعر والضريح..(عمي رسام جداريات وخطاط...نعم عيونه زرقاء مثلي، لكنها لاتشغل ثلاثة ارباع وجهه مثلي، يا خالة)، قايضتني نَورَست بحكاية حَياوي، او تقيأتني وافشت لهم اعترافين خطيرين...الأول لما قالت لمُلايَة بانها تكتب رواية من شعر الرأس الذي تجمعه من هذه الدَربونَة، وستلصقه على لوحات وتعرضه كَرواية، وأَوضحت لها المزيد لكي تفهم مُلايَة معنى الرواية، وإنها شئ يشبه الأفلام الهندية التي تحبينها يا خالةّ!، ومع انك يا خالة لاتجيدين القراءة الأ انها لاتنفعك في الترجمة لاني سأرسم الشخوص رسماً، و سأطلق الرواية وأُمشطها بعد ثلاث أو اربع اعوام في معرض كبير في الكويت، وسادعوك اليه ..صدقيني.

تذكر نَورَست بان شَفتي مُلايَة تقلصت الى الداخل وإنها بدأت تتحرك ببطء بظهر مقوس كأنها احدى خنفسانات وداد المزودة بدبوس معرقل للحركة، ولأَول مرة تراها تتكلم وهي واقفة، لتعرض عليها بان تشترك معها في الكتابة، كما اشتركت معها في نزع الشعر، ولأن نَورَست تشعر دائماً بانها راوية ثانوية يقف خلفها فم عملاق ملبد بالشوارب، رفضت بـ«لا» طويلة مَفتوحة الساقين، فلا يَسعها ان تكون ثانوية مرتين، فأَقنعت نَورَست مُلايَة

مكتبة الفكر الجديد

بأن الشخصيات داخل الرواية ليس بمستطاعها أن تَكتُبْ، وأَنت أحدهم يا خالة، واولادك ايضاً، كلكم اعضاء في رواية الشعر هذه.

في شهور الصيف الرطبة حينما يغيب حَياوي، ستُبدي مُلايَة حماساً بالغاً للولوج بقوة داخل ظفائر الشعر تلك كما تسميها، واحياناً تنتصب واقفة وسط اكوام اكياس الشعر، وتعصر وسطها بكفيها وتخاطب نَورَست...الأ ابدو لك خصلة سوداء أرملة وحزينة؟؟!

الإعتراف الثاني، لم تفهمه مُلايَة، كيف سيكونون أعضاء في هذه الرواية، والشخصية الرئيسية فيها ..اسمها (زكية) وهي معلمة في مدرسة بهلوي الأبتدائية في عام 1914.

(11)

زَكية إبنة «سَعيد مَكْتوبلي»، إشتَغل صانعاً عند ميكانيكي سفن لدى شركة النقل المائي التُركية، وَلم تَمض سوى ستة اعوام ليلتحق صانعاً ايضاً لدى الشركة الأنكليزية للسفن البخارية، المعنية بايصال البريد من الهند وكابل الى بغداد، تعرف فيها على مهندس من أسكتلنده اسمه (هانز مكنزي)، وقتها كان يصطحب زكية الطفلة معه الى مَسفن الشركة على ضفاف شط العرب، ويراقبها تأنس باللعب مع مكنزي الأسطة، تعلمه شق بطون الأسماك بشرطةٍ واحدة ويعلمها اغاني انكليزية، تعلمه لعبة الشطيطان الزُبيرية ليعلمها لعبة الرَكبي الأنكليزي، فيضحك الأب سعيد من تَشابه اللُعبتين...

تعتمر على رأسها صينية الغداء، يراها مكنزي من بعيد تتعثر مراراً من قبقابها التي تسرقة من أُمها، وتربطه باقدامها، تَختبئ خلف النخيل...

مكتبة الفكر الجديد

مكنزي...مكنزي..مكنزي، تصيح بصوت خجول، لأنها لم تعد تصلح للمزاح كطفلة، بعد ان انتفخ صدرها وتفصدت عليه حبات العرق على طول الطريق.

مكنزي..مكنزي، لايسمعها مكنزي او إنه يَتظاهر بذلك، يهرع لها أخوها من بين اجواف الأحواض المعدنية المقلوبة، عمره خمسه اعوام فقط، وإسمه مكنزي ايضاً، سَماه ابوه اعتزازاً بإِسم ذلك الأسطة الميكانيكي الطيب والبارع ..مكنزي.

كَبر مكنزي الأخ هذا وتزوج، تعلمت زكية الأنكليزية والفارسية وفن استنطاق الأجساد، ومعرفة معاني حركات اصابع الأرجل وحَكات الشعر والأنوف، أَنجب مكنزي الأخ توأمين جميلين، (رِفْعَت وجَودَت مكنزي سعيد مَكْتوبلي)، الحقتهما معها بمدرسة بهلوي الأَبتدائية، منذ ان انتسبت اليها كمعلمة للغات والعلوم، ولايتذكر «غويلي العبد» احد تلاميذها من تلك الأيام سوى غفلاتها الكثيرة في الدرس، او نجدتها للتوأمين رِفْعَت وجَودَت من قرصات التلاميذ وتَنمرهم عليهم.

«غويلي العبد» ان أَحد الذين يفتشون في سَلة نفايات الصف ويعيدون ترتيب أَوراق الرسائل المكتوبة بخط احمر، التي تمزقها الست زكية وترميها في السلة..ليقرؤها بصوت عال في الفسح.

كانت تقضي اغلب دقائق الدرس مشغولة بالنظر من الشباك الى جهة مبنى المراحيض الخارجية، او تمسح من على السبورة ما كان يخلفه التلاميذ... كانوا يختمون بجوانب أكفهم المقبوضة على السبورة، باللعاب، مسار أَرجل قطة يتصاعد من الأرضية وحتى السبورة .

تركت مِهنتها في مدرسة بهلوي، والتحق «غويلي العبد» بمدرسة التبشير

مكتبة الفكر الجديد

الأمريكية في البصرة، وهناك تعرف على «دوكا فاسيلي» الروسي الذي علمه كتابة القصص، ليهاجر بعدها الى جورجيا ثم الى موسكو، ثم يعود الى البصرة ويتقدم للعمل كمترجم للغة الروسية في صفوف القوات البريطانية في العراق أيام الحرب العالمية الأولى.

هناك الكثير من الخصلات التي ستلصقها نَورَست على لوحاتها تشبه غويلي، وكلهم من تلاميذ الست زكية وممن سيتذكرونها وابناء أَخيها التوأمين(رِفْعَت وجَودَت مكنزي) ...مراراً.

لم يَنس أحد رائحتها الكريهة، وحينما بلغ من لم يَمت منهم، عرفوا بأنها رائحة سكائر ممتزجة برائحة المراحيض التي تَعشق التدخين فيها.

(12)

إِشتغَلت زَكية كمُنظمة لسِباقات الحَمير التي تُديرها الفِرقة الفنية للجيش البريطاني على الشَط، ثُم باعت كل حميرها الخَمسة والثَلاثين، لتشتري هذا البيت الكبير، وهنا شَهرت نَورَست سبابتها الغَليظة وغرزتها في ارض الدَربونَة، هذا البيت الذي انفتقت عليه هذه الدَربونَة كان عائداً للقنصلية البرتغالية في البصرة ..وكان مقرا لاول قنصلية لها في الشرق، قبل ان ينتقلوا بها بعد اعوام الى ضفة الشط، لِتَمُر عليهم خطوط خريطة تجارة المياه والتوابل، التي تتَصل من أَحد نُتؤاتها العَريضة بأَنف أميركا الجنوبية والهند وماليزيا، وتُشاطئ قلاع البرتغال في هِرمز ومَسقط والبحرين والفجيرة.

تَهادن الولاة وملك الهند البرتغالي على ان تكون قنصلية .أوهو اَسلم من ان تكون قلعة.

مكتبة الفكر الجديد

زكية صرفت عمالها من البدو وابناء العشائر وبعض طلابها ممن كانوا يمتطون حميرها، وابقت بعضهم معها، واستأجرتهم في بناء حمامها الكبير هنا، ثم اشترت عشرة عبيد ممن تتسللت بهم السفن الى الخليج، وتزحلقوا برَوية من بين تدويرات الخريطة ونيران الأسطول العثماني، بعد ان علقوا لعدة اعوام في جزيرة فيلكة، والتحقوا بحواف الخريطة، بين يدي قرن جديد، ومعلمة مطرودة تَهم ببناء حمام كبير.

كان العبيد يجيدون حياكة حبال الخوص والليف، وما اسرع أن تعلموا منها بعض الكلمات الأنكليزية والفارسية، كما انها عرفتهم بعلم الحساب والأرقام، وخريطة الطريق من خانات الحمام والسواقي والتنور الكبير والى سوق الحبال والبهارات، وهكذا إمتلأ حمامها بالبخار والأغاني الأفريقية، وطيات بطون النساء والرجال المترهلة.

نصف الحمام مُخصص للنساء ..ونِصفه الآخر..وأظن نَورَست اشارت بأصبعها نحو ضريح شوفان لتقول ...ونصفه الأخر مخصص للرجال.

لكن البنات المعيديات ممن استأجرتهم زكية لتدليك النساء كن قد هربن بليلة واحدة..تزوجن او إمتَهن العمل في حصاد المزارع، لذا فإنها راقبت نِساء سوداوات يَقِفن كل خميس أمام بقالة الحاج عباس في (أم الدِجاج)، مُتلعفات بالسواد ولايبان من وجوههن أَنفٌ ولاعين، حينما يلمحهن الحاج عباس يَأمُر عامِله فَيملأ لهن ما فضل من الخضار والفواكهة في سلال مكسورة، كان الصانع بلهجته الفاوية يهزأ من لهجتهن البلوشستية، وفي يوم ما قررت ان تتبعهن، فمشيت خلف ظلالهن لكن صدرها الذي يعبث به الدخان، لم يساعدها على اللحاق بهن ..فنادت عليهن حتى وجدت نفسها

مكتبة الفكر الجديد

امام قوس متعرج يرسمنه بظلالهن على الأرض ..فأتفقت مع الظل الأطول بشأن العمل في حمّامِها .

(13)

إبتلعت مُلايَة هذه اللَحظات وإعتبرتها سعيدة لأَنها مَرت بسرعة، وَدعت نَورَست وأوصلت معها أكياس الشعر الى الشارع، لتَنفرد بذاتها الجديدة.. الكون شَخصية في رواية!، إستعاذت بالله ومِن جَميع الأَولياء الذين تَعرفهم وأمسكت بيدها المشبكات فَي قَفص شوفان وراحت تَلثمه وتقبله، وتَضرب رأَسها بالحديد، وعَدَدَت كل قصصه وكراماته وتذكرت تفاصيل قِصته مع «الأَفندي» الذي لَعنه فَحبَله.

تَذكرت منامات النساء وأَحلام رؤيتهن لشوفان شخصياً مُكَلَلاً بالنور والبياض، كيف تَجرأت نورست القحبة عليه اذن؟ واشارت بيدها نحوه وجعلتها تتخيل الأف الصور القبيحة بدلاً من قفصه المعطر بالبخور والحرمل!!...كانوا عددا من العبيد يجلسون على ركبهم، ويقبضون بلطف على اعضاء الرجال واياديهم ليحلقوا الشعر من عاناتهم واباطهم، كان بعضهم خائفاً لئلا يجرح جلد الرجل الكهل السمين المشعر في احد الأركان!، كان الشعر يتساقط في كل مكان، كان النساء والرجال يكنسونه أو يحصرونه بإهمال في زوايا الحيطان، ويلتقي ماينساب منه مع الماء في سواقي مَلبوخة بالجص تشق أرض الحمام وتنتهي عند ساقية هي بالضبط مسكن حميد وبَناته اللعوبات.

سَمعت صراخ «مدين» و «وداد» من داخل البيت، مَشت إِليهما وشرارات

مكتبة الفكر الجديد

الغضب تتطاير من عينيها، وزاد عليها بانها تشعر الأن بأَنها جزء من رواية يكتبها كائن ما، وداد لا يُعَلِم اخاه مدين حساب الأرقام بيُسر، يضربه او يلكمه كما يلكم الكبار...

عَضتهما مثل كَلبة، وشاركتهما دقائق من البكاء الطويل...وفي الليل كان وداد المتعب من البكاء يتربَص لقطٍ اسود كبير يقترب من قطة نائمة، امسكت مُلايَة كتف ابنها، لكنه لم يرتعب، رغم انه إرتعش حينما عرف بانها امه، طوقته بجسمها واحتضنته..قالت له بان عليه اَن يضحك وانها ستقول له الأن خبراً سعيداً....نحن، يايمه اناس في رواية.

هي تعدلت مشيتها وصارت لغتها اوضح وهي تخاطب النساء المرتادات لضريح شوفان، وهو صار يرسم بكثرة ويستحم في الشطوط كل يوم ويمسد جسوم القطط بباطن كفه الأبيض بعد ان كان يشنقها مع الضفادع لتبدو كعرائس صغيرة من بعيد ومن فوق الأسلاك.

العالم الجديد الذي يكمنون فيه، تصوره وداد بحجم ذلك القاموس الكبير الذي يطل عليه دوماً في مكتبة اطلس في «العَشار»، يتخيله بين يديه..وكم فكر ان يسرقه من ذلك البائع الذي يطرده من الزجاجة كل مرة.حتى اشتراه له ابوه فيما بعد، لكنه خربه وقصه من الزوايا ورسم عليه قصة متحركة ...

تخيل بانه يعيش داخل كتاب بذلك الحجم، وتخيل نفسه داخل الكتاب يقرأ كتابا ما، وشخص ما يتصفحهم جميعاً.

انقطعت نَورَست عن المجئ لشهور، تركتهم يتقلبون على جمرة وهمية، ولأَن مُلايَة تعودت ان تسمع طرقات نَورَست على الباب في الساعة العاشرة من صَباح أو صباحيَن في الأسبوع، لذلك بدأت ترسل وداد الى بيوت الجيران تستفهم منهم عن الوقت، ولايقنعها جواب واحد احياناً، بل

مكتبة الفكر الجديد

يحصل أَن ترسله الى خارج الحي، ويعود بالوقت وتضيف من عندها زمناً تحسبه لذهابه وايابه، لكنها تظل عند رأس الدَربونَة تسال المارة عن الساعة.. وتتسقط قامة نَورَست من رؤوس الشوارع.

ولكن البنت ام الرواية عادت...تغطي رأسها بعصابة، مطبوع عليها زخارف نباتية، وهزال اكتافها محشو بالأسفنج.

تَركت مُلايَة ما في يدها من تنور طيني فاشل.وهرعت لمعانقتها بيديها الملوثة بالطين، عصرتها بشدة، ياهذا المعمعان الذي شكت لها منه..ياهذا الليل الطويل الذي كابدته ...

نَورَست المطأطئة رأسها اشارت عليها بان تقسم عالمها وتجدوله، فليسوا هم كما تدعي ..شخوص في رواية شعر على الدوام.

هذه الجنية الفاتنة تعلمت مني الكثير من الكذبات، من الرسم والكتابة وحتى تلوين الأفكار وتأطيرها، فأخبرتها نقلاً عني بأن القراء اللامرئيين لا يصغون جيداً، واحياناً تظل عيونهم معلقة على السطور، بينما تسبح اسراب من الأسماك الملونة في خيالهم.

يمكنك ياخالة ان تديري شؤونك الأخرى في احدى ساعات الغفلة تلك، واياك ان تعاتبي ذلك الكائن الذي يكتبك او ان تلذعيه بلسانك الفظ...استعيني بالطباشير لتخطيط البييت!.

مكتبة الفكر الجديد

(14)

تَبدأ نقطة خَط الطباشير المُقسِم للعالم والرواية مِن ثقب في الأَرض، يَستعمله مَديَّن كَهدف في لُعبة خرزات الزجاج، يَمشي الخَط لينعطف الى غُرفة النوم والمَعيشة ويَصعد على سَرير مُلايَة النحاسي، ويَلتف على سيقانه، لينزل خط الطباشير، ويُقسم أكواب الفَرفوري والأَقداح وأَرضية المطبخ ويمر على المرآة المكسورة ويوزعها الى نِصفين، ليتعرج في تَحدباته وتَقعراته على مُحركات القوارب العاطلة المَبعثرة في المَنّور، ويَعود يمشي بإنّتظام شاطراً البيت كل البيت الى جزئين.

غافل وداد أُمه وخرج بالخط الى شوفان، وضمه الى جزء الخط الخاص بالرواية، وابتعد بالخط عن كومة طابوق عشاق بنات حميد، ودخل الى الساقية وغار في حمرتها.ظل وداد يمشي منحني الظهر يمرر طبشوره على أرضية الدَربونَة ولم يشعر حتى بالأعياء الذي تسببه هذه المهمة، التفت وراءه ليأنس بالخارطة ذات الحد الأبيض التي رسمها ولاحظ خروجها برشاقة من بابهم الى الشارع، كل هذا وهو لم يرفع رأسه منتصباً.

لاحظ ان الطبشور قد نَفد وانه رسم الأمتار الأخيرة بإِصبعه، فكر بالأستمرار والمرور بكل شوارع البصرة القديمة، خِدمة للناس وطيبة منه لمساعدتهم في التفريق بين العالمين!.

سمع ضحكات بنات «حميد طبانة» عَليه من فوق سياج سطحهم، مر عليه راكب دراجة هوائية تَعَمد رفسه من مؤخرته، لكن وداد لم يَقع كما إِنه لم يقف أصلاً، تعاظم صوت الضحك عليه من الأعلى، قَذفهن بحصاة كبيرة وهو محني الظهر، لم يعد قادراً على اكمال الخط بإصبعه، ولاحظ إنه ابتعد

مكتبة الفكر الجديد

كثيراً عن البيت، لم ينجح في محاولة رفع قامته، شعر بألم شديد، مواصلة طريق العودة بظهر منحي أسهل وأقل إيلاماً، إستدار نحو البيت دون أن يرفع رأسه ليبصر الطريق، واستدل على طريق الرجوع من الخارطة.الحدود لازالت واضحة ومفيدة، قادته الى البيت فَرمى نفسه على الحصيرة ونام.

(15)

«ليش ما خلقتنا يارّبي مِثل باقي البَشر، ليش خَليتهم يكتبُونه»، تَقول هذا بعد ان تَبتدع لأَولادها أَسباب العقاب، وصارَ حَقيقة ما كانت تَتوعدهم به، لُفافات القِماش التي تَطويها وتُحرقها بَدأت تَدعك بها أَظافرهم فعلاً، تثقُب خَواصرهم بالعِصي، ثم تُكَسّرها على متونهم وظهورهم، كل هذا لأَنهم صَدقوا كَونهم في رواية، أسرع، وكانوا أَشطر مِنها في تَأدية أَدوارهم.

يهربون منها، تلحقهم حتى انتهاء خط الخريطة، يتقافزون على الجدران مثل القطط، لكنهم ينوحون مثل النساء، يمتد هذيان غضبها لساعات، تلهج بها بتفاصيل الرواية وتسب «غويلي العبد»، وتذكر جَودَت ورِفْعَت وتلعنهم وتدخل عصيها في مؤخراتهم.

لايعود وداد وأخوه الى البيت للأَيام يَبيتون لياليها في درابين «سوق المغايز» الأشد عتمة وتخويفاً في الليل.تنطبع في رؤسهم اسماء الشخصيات التي تذكرها امهم، فيحفظونها ويرددونها، ويسألون عنها، حتى حدث ان بذل وداد اسبوعاً كاملاً يبحث عن تلميذ للست «زكية» إسمه سلوان..فتش عنه وعن زكية في كل المدارس القريبة من البصرة القديمة، لم يسمع أحد بزكية هذه، لكنه عثر على سلوان!.

مكتبة الفكر الجديد

«سلوان جبارة»، طالب صابئي في الإعدادية المهنية، يُخاتل اباه احياناً ويركب البرازيلي ليشتغل سائق تاكسي.

هذا ما سمعه عنه قبل ان يلتقي به في نفس اليوم..في ساحة الأعدادية، بعد السلام والأستقبال المؤدب الذي حظي به وداد وكانه رجل بالغ، والأكف لم تزل متشابكة، بادر وداد بإخباره..نحن أعضاء في رواية شَعَر وأنت تلميذ فيها أيضاً.

هكذا بسرعة وقع سلوان على بطنه، إنقلب على جانبه، إستغرب وداد من شدة تلك القهقهات التي إنقلبت الى سعال وبصاق، لم يعجبه ان يضحك عليه سلوان بهذا الشكل...

ـ ادري..

ـ ادري كل شي، بس انت همين تلميذ يم الست زكية ..

ـ انا.

ـ نعم..نحن حالياً بالفصل الخامس عشر!

ولم ينتظر بقية التعابير التي ظهرت على وجه وداد ليقول له بانهم الأن خارج النص، لانه اصطحبه الى خلف المراحيض، ولو انزووا قليلاً في الطرف الأخر من ظل المراحيض فأن الست زكية التي تعاينهم من شباكها لن تراهم. فهم وداد كل تلك الحيلة من سلوان، بل اقترح عليه حيلاً أخرى للخروج من هذا الفصل المُمل، وهو الذي سحبه الى احد زوايا حائط المراحيض الذي تنز منه النشادر، وأقنعه بـ(أنهم ينظرون الينا الأن!).

ـ منو؟

ـ القراء...

مكتبة الفكر الجديد

(16)

«جْبآرَة»، يَجوب خَريطته الخاصة، كل ظهيرة، يَعشق رؤية سَيارته البّرازيلي وهي تَتبرز خُطوط الشارع البيضاء من الخَلف، يُطالعها بمِرآته ذات ميدالية السَيف ذي حَدين..، تِلك التي يُحَور زاويتها وِفقاً لوَجه الراكب، ويَدعكها دائماً كأنها عَينيه، ويَكتشف من خلالها ..إن كان سَلوان غادر بالسيارة دون عِلمه، وسلوان بِدوره يَعرف من خلالها إن كان أَبوه قد أَقَلَ بها شخصاً ما، لأن أباه سائق أجرة سِري، لايجوز لأَحد أن يذكر أمر مِهنته او هِوايته تلك في أي مكان، عَجرفته لاتسمح بتلك الضعة، المَشهور..بأنه يَذهب كل أَسبوع الى بريد العشار المركزي ويعود، ولا أَحد يدري بأَنه يُقل احياناً بعض الركاب، يَقص عليهم كل شئ، دون أَن يَسمح لهم بالأشتراك معه في قِصصه التي لاينبغي السكوت بعدها، ذلك لأَنه يُحيط بكل شئ، ومُلم بكل التَخصصات النادرة، مع إنه لاينسى ذِكر مصادره، وينسبها الى عام سحيق، يوم كان يَعمل رَئيسا للطهاة في دار إِستراحة البصرة، الذي آستضيفت به شخصيات كبيرة زارت المدينة .

كانوا يتذوقون اطباقه، ويسمعون حكاياته ايضاً، ويظل متواصلاً مع بعضهم بالرسائل، مزهواً بذاته ذات الصلات العريضة، التي تتكلم نقلاً عن اسطوانات العلم والثقافة والدين، وبذلك يستطيع ان يقهر راكباً تفوه اثناء بدايات الحديث ببيت شعري ليقول له بان نزار قباني صديقه وتعرف عليه ايام مهرجان المربد، ولو تفوه الراكب بحديث ديني لذكر له تقاسيم النور في وجه قاسم فيضي الزعيم الديني الهندي الذي توقف في البصرة ليستريح ثلاث ساعات كي يكمل رحلته الى النجف وكربلاء، اما الروائي الهندي نارا سنغ فأنه حاضر في اغلب حواراته و غضباته المملة.

مكتبة الفكر الجديد

كان يتابع نَورَست بعد أن أنزلها قرب «جسر الداكير»، ولم يتحرك حتى رآها تَخلع حجابها، ولاحظ صلعتها تغرب تحت الجسر، شغل السيارة، وتوقف قليلاً، لينزل زجاجة الباب التي طبعت عليها نَورَست شفاهها الملونة، بعدها أقدم جباره على واحدة من أهم حماقاته، لا اعني توقفه بالقرب من تمثال أسد بابل، وإنزاله زجاجة السيارة المختومة بشفاه نَورَست، ولا اعني طبعاً توقفه مرة أخرى في احد أزقة التميمية وتعمده تدوير عتلة الزجاجة و رفعها من جديد وتأكده من وجود البصمة الوردية المخبأة، بل أعني توقفاته الأضطرارية المخيفة أمام مديرية الأمن وصور الرئيس، مؤدياً المشهد نفسه.

شغله إحتفاظه في أحشاء الباب بفم ساحر، وتخيله يَدُب بين عتلات مقبض تحريك الزجاجة، حتى انه لم يبالِ حينما راى سلوان و رفيقه الأسود منحنيين في منتصف الشارع يخططانه بالطباشير!.

عادا عند العصر جيوبهم مملوءه بفتات الطباشير الصغيرة، دخلا الى حديقة بيت سلوان، اول شئ رسمه سلوان على جبين وداد المغري للنقش والكتابة، اول شئ..كان علامة الدرفش المندائي، ثم ركبا البرازيلي الجاسئة في الحديقة، وقال له بانه سيجلب عودين من قصب السكر ويأتي.

قَلَب وداد عينيه في ذلك الكراج الحديقة الذي قبرت فيه هياكل أبواب ومُعدات وقطع غيار للبرازيلي وإطارات وصامولات وبقايا لُقم و محركات ميكانيكية وكهربائية، وقناديل إشارة تاكسي ملونة، مختصة بأزمان وموديلات قديمة، ورَفع دون قصد زجاجة السيارة،فتابع بروز بقايا فَم الراوية مُلتصقة على الزجاج.

ركب سلوان محتلاً مكان السائق، مد وِداد يديه يداعب القلادة...

مكتبة الفكر الجديد

ـ أبويه اشترى السيارة قبل سنتين وهاي جانت وياها....تذكر هاي الراهبة المسيحية الي جانت تفتر بالعشار..هههه، هاي سيارته.

حَك سلوان مركز فحولته وهو يستمع لشروحات وداد حول الخريطة، دقائق فاترة مرت لم يسمع فيها وداد سوى صوت إحتكاك كف سلوان بقضيبه المُضطهد تحت سحابة البنطلون، رمى وداد قصب السكر تحت الكرسي، وشارك صديقه تلك اللذة، فصاروا يدلكون اعضاءهم باتجاه الشفتين الورديتين.سلوان حرر خرطومه من طبقات الثياب ثم اطلق صوتاً وماءاً أَصابَ بعض قطراته البيضاء سواد وداد،وداد كان مُستعداً للمباهاة بأطوال تفاصيل جَسده دائماً، لكنه إستغرب تلك الزوائد التي ينعم بها سلوان والتي تلف عضوه وتحجبه، فسارع الى تدوين ملاحظة على هامش خريطة الرواية وخط الطباشير، تفيد بأن كل رجال الرواية يتَمتعون بأَغلفة و زَعانف تُزخرف أعضاءهم،كما إنهم غير مَختونين مثل سلوان وعَشيرته، وإن هذا الجزء من أجسادهم يتحرك بإستقلال ولا تربطه بجسد الشخصية سوى علاقة حيوان أليف بسيده العجوز.

بعد إنقضاء اللذة، حاولوا تدوير عتلة الزجاجة وإنزال النافذة وإخفاء شفتي نَورست، لكن زجاجة النافذة عَلِقت ولم تنسدل، وبعد نصف ساعة أَغرتهم الشفاه الوردية من جديد، فإستمنوا بإتجاهها مرة أخرى.

(17)

في 8-8-1988 إنقذف نَحو الشاطئ زند أسود موشوم عليه تاء مربوطة «ة»، لم يلحظها أَحَد بالتأكيد، لكني أفترض ذلك...حينما يَصطدم طراد

مكتبة الفكر الجديد

عسكري بلغم بحري، أغلب ركابه من الجنود العراقيين السود في اليوم الأخير من الحرب[12]، وأحدهم حَياوي والد مدين ووداد، ذو الجسد اللافتة، اما التاء المربوطة...فلأنها أكمل الحروف المقطعة التي يمكن العثور عليها في سَواده، ليس لأن الأعضاء التي كتبت عليها لاكها الخليج وبصقها بسرعة، بل لأنها غير مفهومة أَصلاً.

لكن إملاء الحروف يبقى مقبولاً بالنسبة لزوجة في الأربعين تَطمح لقراءة ترجمة الأفلام الهندية بنفسها، ولكتابة نفسها بنفسها ايضاً، ولوعادت نَورَست الروائية من جديد، فأَنها ستطردها، لو دخل روائي ما دربونتها متخفياً كعامل قراءة المقاييس الكهربائية فأنها ستكمن له وتسكب على رقبته زيت الفلافل الأسود، الذي يستعمله وداد لصَهر حيوان (حية ام سليمان)عادةً.

مات حَياوي اذن!....خطر لها بأن الصفحات القادمة ستصبح شيقة، الناس الذين يجيدون القراءة او القراء اللامرئيين يتلمظون حالياً، والقحبة التي تكتبها الأن تشعر بلذة الكتابة، قررت ان تمد يدها نحو كرزات البطيخ المجففة التي يضعها سائق الكراون بين المقعدين الأماميين، إنه طريق العودة من «النجف»، دَفَنَت حَياوي في جزء جديد من المقبرة الكبرى وفكرت أَن تعود في الأربعينية مع صورة له في زاويتها خط اسود مائل، تضعها في قفص القبر، اسوة بباقي الموتى وقتلى الحرب، كانت عازمة على إجادة القراءة و الكتابة من جديد، ولم يزعجها ابتهاج الناس الذين تلحظهم من نافذة سيارة الكراون بإنتهاء الحرب وعدم مبالاتهم بتابوت فارغ يمر في اليوم الأول بعد انتهاء الحرب.

12 حرب العراق مع إيران، او حرب الخليج الأولى، إستمرت من أيلول 1980 حتى آب 1988 وتعد من أطول الحروب التقليدية في القرن العشرين ادت الى مقتل زهاء مليون شخص وخسائر تقدر بحوالي 1.19 تريليون دولار أمريكي.

مكتبة الفكر الجديد

رأس البذرة المدببة أولاً، ثم بطنها السمين، يليه نهايتها المدورة المالحة، هكذا قننت التهام كرزات السائق طوال الطريق دون ان ترمي قشرة واحدة، ويبدو إنها عرفت هذه الحيلة وسمعت بها من نساء البصرة القديمة وحديثهن عن رحلة العودة من دفن الزوج ولحظات الفراغ من البكاء، ولا اقصد حيلة قضم الكرزات بهذه الطريقة، بل وضعها من قبل السواق هكذا بمكر ومراهنتهم على أصابع النساء الفاقدات ومراقبتهم لتسللها نحو المقعدين الأماميين بحياء ومخاتلة، ...مُلايَة لاتبالي بذلك ابداً، انها تأسى لاحوال السواق كونهم مكتوبين مثلها.

نظرت الى مرآة السائق الأمامية، ماابعد صورتها عن صورة شهادة محو الأمية؟، المخبأة جيداً في حقيبة العائلة، تذكرت ..كم كانت مترددة في تسليم صورتها وهي حاسرة الرأس الى ست بتول المعلمة السوداء الأخرى في دورة محو الأمية يوم كان عمر وداد ثلاثة شهور فقط....وكم عانت كثيرا في فهم هذه الأبجدية الغريبة التي لم تترك لها مجالاً للغُرور والتَفرعن على زميلاتها من الزوجات وربات بيوت الحمالين والجزارين والمعلمين والتجار والصاغة والنواخذ.

فالألفبائية القديمة التي تعلمتها قبل عشرات السنين كانت مختلفة تماماً، ولازالت تعتقد ان امها المُلايَة كانت قد صممتها بنفسها..امها كانت تعمل كمُلايَة انا لا اعرف اسمها، المهم انها تعمل كمعلمة قراءة وكتابة شعبية للاطفال في منطقة المربد القريبة من الزبير، المدينة التي يسكنها عمال شركة نفط البصرة البي بي سي، تعود كل ظهيرة محملة بالبيض وبكرات ملونه ثقيلة! وبالخبز الكهربائي وبعشرات الحكايا عن المسابح الخاصة وصالأت لعب البلياردو التي شيدها الأنكليز هناك...

مكتبة الفكر الجديد

اس هجك طره ..الخ، فشلت في ترديدها مع أمها،لازالت تحتفظ بكرات البلياردو المسروقة التي خدشت الملاية الكبيرة أرقامها وحولتْها الى حُروف أبجدية الأَم، أبجدية الأَم تلك التي أَرَقت ملاية البنت فَناحَت مشتكيةً من صعوبتها، فأقنعتها بإرتياد جلسة التعليم التي تعقدها «حَنّا اليهودية الطويلة جداً» في سُوق التَوراة شَأنها شأن صديقاتها الفتيات البلوشيات الصغيرات، وهناك تحت الشنشول الأحمر الجميل تَعلمت مُلايَة الفبائية أخرى، صَمدت ذاكرتها بالأحتفاظ بموسيقاها حتى لحظة نظرها الى وجهها في مرآة سيارة الكراون الداخلية.

أما مَحو الأُمية فلم يكن سِوى مَرحلة لإعادة ترتيب الحروف وأَشكالها من جديد، نعم أشكال الحروف كانت متقاربة نوعاً ما، هذا ماوشت لي به خاصرة حَياوي حينما رأَيته لأول مرة في ميناء خور الزبير، حينها عذرت مُلايَة على كل هذا العبث في جسد الزوج، كان سطحاً مغرياً لتدريبات الكتابة لكنها لم تترك لي فراغاً لمجرد تَخيل الرسم.

أنا عرفت حَياوي رحمه الله في الميناء من علامتين تُميزانه ...هذه التوقيعات الموشومة على جسده وتلك الطبرة التي تقسم جبينه المستطيل بشكل قطري، يعتبرها وداد علامة نهاية الفصل في وجهه أبيه، الفصل الذي لن يعود الى إحداثه مطلقاً، فهذا الجرح العظيم في جبين الأب نتج عن ضربه احد السكارى الساخطين بقنينة عرق مستكي يوم كان الأب يمثل دور حرملة بن كاهل[13] في تشابيه يوم عاشوراء ...وبعد إن يصيب حرملة عبد الله الرضيع طفل الحسين في جبينه تنفعل الجماهير وتضج بالصراخ والبكاء ...ويتلقى

13 إحدى شخصيات مسرح التشبية الشعبي وأحد أفراد جيش عمر بن سعد الذي إشترك في قتل الحسين في معركة كربلاء التي جرت أحداثها عام 680 ميلادي.

مكتبة الفكر الجديد

حَياوي ذو الخوذة المعدنية واللباس الأحمر ولحية الصوف المستعارة سيلاً من الشتائم والمقذوفات الزجاجية والحَجرية..كان دوراً مَوروثاً للأب كما يقول، إِمتهنته العائلة عبر قرون طويلة.

بعدها قرر الأب التخلص منه الى الأبد، وفي عام 2004، حينما عادت مواكب التشابيه تمارس مسرحيات الطقوس التي كانت ممنوعة، كان رؤساء المواكب في الحيانية يبحثون عن أقبح الرجال وأصنمهم أي أنتنهم رائحة... رفض وداد بضرس قاطع استقبالهم مذكراً إياهم بحادثة أبيه في البصرة القديمة.وبذا ارتاحت العائلة من هذا الدور الطويل او إِنشغلت بتأدية أَدوار أخرى.

تعطلت عبارات مُلايَة الأولى كثيراً، او إنها لم تَتوصل الى عِبارة سليمة... ولما كان حَياوي يكشف عن كامل بطنه ويساومها عن ليلة أَنس خاصة مقابل حرف واحد أو حرفين، كانت تأملاتها تطيح بالهَزيع الأخير من الليل دون أَن تتوصل الى تدويره واحده، وكان يضحك من وثبتها نحو الفانوس والأبرة المغروزة في مروحة الخوص الكبيرة، تغوص مثل سمكة الزْعّيَم في البحر وتعود اليه بسرعة وتسخم بطنه وتظل تعالج خطة الكتابة، إقترح عليها ذات الليل الصيفي ذو الريح الوخمة، أن تَرحمه وتخط على جسده ماردده عليها من شتائم البحر غير المأثورة..لكنها تظاهرت بالخَجل كأنها تقول له بأنها غير صالحة للنشر، رغم إنها تَسربت الى خيالها وصارت تطلقها في سورات الغضب بعد سنوات طويلة على أولادها منونةً بالأصوات والأعضاء الجنسية، مبثوثة في فضاء الدَربونَة...ومتسلسلة بأسماء الأجداد وأرقام الأعوام والأحداث المهمة التي تعرفها.

هذه العبارات القصيرة، المطعمة بكل لغات البشر المشاطئين لرحلات

مكتبة الفكر الجديد

حَياوي، والتي تعلمها من عمال بحر مسنين ..عن قصصهم الوهمية حول ايلاجات تلقائية وسريعة في أفواه وفروج غافية او مشتعلة على سواحل جاوه وكلكته وكطر وكراتشي وكاظمة والشارجة، سرعان ماتجف على اليابسة وتصبح عالماً مُمكناً وقابلاً للتصديق، هذه الشتائم سَتندك سريعاً على جدران الدَربونَة المكسوة بالشَعر، ويتلوها المجانين في لوازمهم، وسيضمنها وداد في مراهقته مع نهايات القواميس والمعاجم التي أدمن قراءتها، فيشرحها ويفككها.

(اكتبي «حرملة بن كاهل» وخلصينة)، (اكتبي عمامي تحت إقدامي)، (رسمي حورية نصها جرية ونصها جسم نَورَست)....يتكلم وكأنه يرفس الكلمات من لسانه الغارق في نوبات الضحك والسعال والقَيء الذي يتطافر رذاذه نحو حائط ألغيت بعض فتحاته بطبقات البيض الورقية.

لكنها فَلحت أخيراً في صياغة حرف حاء آخري أو أنها تصالحت مع حَياوي ان يكون حاءاً رغم انه يشبه ثمانية عربية نائمة .

وقالت له إن حوض الباء كبير وكِتابته تتَطلب النزول الى أسفل سرته فعليه أن يعذرها أو يغيران النقش الى عبارة أخرى تبدأ بالحاء، وهكذا فشلت المُلايَة البلوشية في انجاز تَدوينة مَفهومة فوق كل هذا السواد المُلهم.

مكتبة الفكر الجديد

(18)

أَعتَرفْ..بأن عقائدي لا زالت صَغيرة، يمكن تَفريغها كلها في مُربع صَغير بِحجم حَرفٍ من أزرار الكيبورد، أو في بَرّشوُمة إمتحانات مَساحتَها سَنتِيمترين مَضروبة بِسنتيمترين، يمكننا دَسها في جيب قميص، معادلة بسيطة، خمسة زائد ثلاثة زائد إثنان زائد إثنان يساوي «ثّنَعَش»، هذه إحدى التفاحات أو الأحذية التي دَرَستُها في كتاب رياضيات المدرسة الأبتدائية قبل ستين سنة، كانت تُساوي «12»، أولاد مُلايَة يحسبون بالمقلوب، كما كان حَياوي يعد الأسماك في سلة الخوص، يُفرغها في السلة ثم يُخرجها واحدة واحدة لعدها..فيقول :بقيت عشرة، بقيت تسعة ، بقيت ثمانية!، بقيَت سبعة هياكل، بَقيت أربعة هياكل، بقيَ هيكلان، أُماه..هناك رجلٌ زائد!

إني اتوثق من هذا دائماً، واتاكد بأن عقائدي لا تزال صغيرة، بل انها تصغر أحياناً، اذ يخيل لي في بعض الأحيان أن حجم عقائدي وامنياتي لا يتجاوز حجم «حبة رز»، غير إن الأمر يتطلب مهارة كاتب بلاط عباسي مكبل في سجن رطب تحت الأرض، قلت هذا لوداد ..(وهل حياة مأبون مثلك، أهم من تدوين سورة التوحيد لدى خليفة!).

ناولتُه خرقة بيضاء ليدمغ جبين الرئيس الذي سال عليه اللون البني الفاتح، وقلت له بأن هذه لعنتي، سال اللون على عيني الرئيس، ولما رفع اللوحة وقلبها، تدافعت قطرات أخرى من الصدغين والأذنين، وشقت طريقها كأن جاذبية الشاقول قد أنقذتها...

ـ زينت راس الريس...

ـ عبد ..انته شايف عبد يرسم؟!

مكتبة الفكر الجديد

عَصَر الخِرقة وَدَعكها على الرأس، فَصَعَقتْني تلك المُصادفة التي لم يَشعر بها وداد نَفسهْ، كان الرَئيس قد أَصدَر قبل أَقَل مِن عام رِوايته ((زبيبة والملك[14]))، وقد أجبِرت على شِرائها من قبل الفِرقة الحِزبية في حي الجُمهورية قَرب مَرسمي، وأشتريتها مرة أخرى مع جَريدتين بعد ان صَّوب الي بائع صُحف أَعرج نَظرة مُستفزة ...

لا أَعرِف كيف حَدثت هذه الوثبة الخارقة لعالم المُمكنات واستَل وداد مِقبض البَاب وأسدَله بِسرعة، قبل أن يلحظ احد المارة صورة الرئيس حليق الرأس، استيقظت على كوكب مظلم مع وداد وأسنانه الصفراء وعيناه المرهوبة وصورة الرئيس حليق الرأس مع نسختين من روايته دلت عليها حزمة ضوء الشمس التي يسددها ثقب في الباب، تقعان فوق كتاب الحيوان للجاحظ وحياة الحيوان للدميري ورزمة خرائط أو مسودة لخرائط لم تكن لتثير اهتمامي بعد...لان وداد كان يبذل اغلب أوقاته في تخطيطها.بينما كنت أشفق عليه ولا اتدخل في تسلياته الخاصة التي تبعده عن عالمه .

لم تسعفني عقائدي الصغيرة وقتئذ، ولم أتشجع لتوسعتها، لم لا يبقى هذا سؤالاً ادوارديا يرقد في ذلك الجزء المقعر من الدماغ الذي تترسب فيه كل علامات الأستفهام المنكوبة والكسيحة، كما تنسدح قريبات وداد البعيدات في مشاف ومصحات وسط الجمهوريات الأفريقية يتطببن من السلس والأيدز وتقرحات الأغتصاب بمعدات عملاقة.

لم يكن بعد قد حدثني بأمر نَورَست، ولكم كان هذا يغيظني، ان يبدو انه يخفي علي شيئاً زامنه منذ طفولته.

وهو الآن، الآخر كما القراء اللامرئيين، يظن بأني لا اعرفها، وما ينفطر له

14 الرواية التي أصدرها صدام حسين منسوبةً إليه عام 1998 ميلادي.

مكتبة الفكر الجديد

قلبي بأن وداد لن يعرف المزيد من التفاصيل، وكم لمحت له منذ لقائنا الأول في مقهى «الشياب» كما نسميه انا هو في العشار....

سينتهي وداد وسيرفسه العالم، دون أن يعلم الكثير، ربما لأنه لم يفكر باستعادة عالمه مثلي، لم يفكر بالعيش مرة أخرى في عالم ثلاثي الأبعاد تمارس فيه خلاياه الرمادية أيّضاً اعتيادياً كباقي المخلوقات والمكتوبات.

ـ إفتح الباب....

صَرختُ في وجهه السادر في الظلام، صرخت بكل الأتجاهات أحسست في تلك اللحظات بأن صندوق الحكايات أغلق بابه الثقيل وانطبق جوفه علينا انا ووداد والرئيس حليق الرأس وروايتين من الورق!

وداد مدرب جيداً على المكوث في الأماكن المغلقة، أما انا فلا، انا حتى اللحظة اخشى إغلاق باب المرحاض على نفسي وكنت طوال عمري اجعله مواراباً او مفتوحاً تماماً.

لا اجرؤ حتى على إبقاء نفسي في هذا الصندوق الأسود كرجل مكتوب ومنسي يتنقل كاتبه الى الحديث في فصول أخرى...وبما إني أتوعد نفسي دائماً بمخالفة عاداتها سأتركها في الظلام، وفي دقائق عام 1997، وأتحدث عن نَورَست، مارأيكم لو فعلتها...سأفعلها.

ـ إفتح الباب...

تركت لي نَورَست صباح اثنين ما في ذلك الأسبوع أو بعده ...قصاصة صغيرة كتبت عليها..

(هل ستحضر كما وعدتني للمساعدة في تعليق لوحات رواية الشعر، ستحضر..لا أظنك ستفوت هذه الفرصة، لاتنسَ ان تخط لي بيديك المرتجفتين

مكتبة الفكر الجديد

الأهداء كما ذكرته لك..إتصل بي على الرقم أدناه لأدلك على معرض مديرية التربية...تلميذتك الغالية نَورَست4-5-1993).

تِلميذتك، هذا الجزء يتكرر كثيراً في قصص آليان دولياني الروائي الفرنسي الذي تقرأ له، أهدتني مرة صورة لبيته الذي أصبح متحفاً، فعرفت أنها تتوقع مني إن اعشقها، تنتظر مني هذا الدور، وهذه ليست إحدى عَنطزات رجل تبتسم في وجهه امرأة ..أنا لم أكن رجلاً على مدار كل الساعات!، ولذا أنا محايد فيما يتعلق بإشارات النساء.

قريباً، سأجعلها تجر ذيلي المتدلي من شقوق الجدران، ستسحبني للمرة الأولى، وللأسف، امرأة مثلها، لتكتشف إن ماتبقى مني هو عبارة عن حيوان خرافي، او ذكر مثقوب، لا يعبأ بثُقب أي انثى كانت، حتى لو نُسج عليه إكليلاً لا متناهياً من زهرة عمامة السلطان الأسطنبولية.

وكأنني استعد لقتل ابني العاق الأفتراضي، كما يرد المشهد في نكتة شعبية، لااطيق سردها...جهزت كل لوازم يومه الأخير، ستنتهي بنهاية هذا المعرض اذن قصة الدَربونَة بعبيدها وأسيادها معاً، ربما لن يزورُه أحد، لن يفهمه احد، المهم بأننا، انا وهي، سنتقيأ أورامنا الخبيثة، اه ما أحوجني لحبة رز ثانية، حبة رز كاملة لهذا اليوم فقط، ساقرأ اخيراً رواية نَورَست، هذا يعني نجمات ورؤوس عبارات جديدة تضاف الى عقائدي دفعة واحدة....

جهزت لوحة كتبت عليها بخط التوقيع..(الى ابي فقط....نَورَست).

علقتها دون أن تلاحظ مجيئي في استطالة كونكريتية أعلى رواق الصالة التي تستغل كمعرض عادة، نظرت إليها من بعيد وهي تحمل لوحاتها وتسندها أسفل الجدران، فعرفت إنها متعبة وتنوي إيكال باقي العمل إلي..

ـ إنه يوم نهاية الأسرار اذن.

مكتبة الفكر الجديد

ـ آني اسراري خلصت، راح تعلق اللوحات، ويجون الناس يباوعون وتلعب نفسهم واحتمال انطرد..

ـ لا على الأقل راح ترتاحين، وراهه راح تزوجين اكيد..

ـ يمعود...

ـ منو يفوت هذا جمال، اله ازفج بيدي..

يبدو ان لفظة جمال أيقظتها من التعب، وأرجعتها الى أيام البحث عن عائلة حَياوي ومُلايَة، تحرك عرق تحت عينها اليسرى، ضَغطت شفتيها بشفتيها، كانها تريد افتعال مشهد يلهيني عن يدها المخاتلة التي سحبت الحجاب من الخلف، طبعاً، لم يفاجئني المشهد، انا اعلم بأنها ستقص شعرها وتصبح صلعاء تماماً، الذي فاجاني بانها لازالت بذلك البهاء، كأن الرواية كلها مكيدة دبرتها عيناها، لان النظر الى وجه نَورَست سيتركز على عينيها الكبيرتين فقط، وراسها الحليق يكسر كل زوايا النظر لمصلحتهما.

ـ هاك، آني راح ابدل ملابسي، اريد اجي والكاك مخلص..حسب التسلسل، اريد أتجول بالمعرض كزائر محايد..

لم تزعجني ابداً نبرتها الغريبة بوجه رجل مسن، بل آلمني حد البكاء مظهرها كطاغوته صغيرة وحسناء، لوثت طفولة مدين ووداد وخربت كونهم الهادئ، وجعلتهم يظنون بانهم مختلفون عن باقي البشر ان كانوا بشراً اصلا، ربما كانت مُلايَة مؤهلة لكل هذا الزيف والخبال، ولكن ما ذنب وداد المسكين الذي صدق بأن عالمه ينتهي بين دفتي كتاب، فتطاول بغريزته حتى بلغ بامنياته هوس الكتابة واصر على ن يكتب شيئاً ..ليتني كنت اعرف ماهو.

مكتبة الفكر الجديد

أَشارت الى اللوحات المبعثرة اسفل الجدران، وولت ظهرها، وتمشت نحو احدى الغرف، عليها ان تستبدل بدلة العمل هذه التي لاينقصها سوى بيرية خاكية او شماغ لتبدو كأحدى مقاتلات الجيش الشعبي.

اظن بأن عليها ان تَستبدل جلدها ايضاً، فأصابعها مَكسوة بالشعر والأصماغ، ولاحظت ايضاً بعض الجلد المتيبس الأيل للتساقط، واظافرها محشوة بالأوساخ وعلى بدلتها بقع تعرقات تضمها الى صنف المغاوير.

لم أدَخر الجهد لتعليق لوحات الشعر، بل ادخرته للنظر اليها، ولولعي المزمن بافشاء الأسرار لكل كائن احبه...ستجن هذه النَورَست مرتين اذن، مرة حينما تمرر عينيها كزائرة في معرضها لأول مرة ومرة حينما تقرأ اضافة على لوحاتها لم تصنعها هي ..مفادها بان صديق والدها لايقرب النساء.

والذي حصل بأني تحملت مشقة تعليق اللوحات حسب التسلسلات والأحداث المعروفة لدي، وتحملت مرارة إلصاق الشخصيات الساقطة من الصمغ من جديد، (وداد وزكية بشكل خاص)، وناديتها بعد ساعتين.

لم تُجب، فقَصدتها الى الغرفة، وفتحت الباب ولكوني لا أُرتب عادةً أدوار حواسي العشرة، فقد تسبق بعضها بعضاً، نبأني انفي الأحمر برائحة سجائر غير محببة، حتى رأيتها ممدة على الأرض وقد تَساقطت منها بضعة أَعقاب سكائر..وعقب اخر بين شفتيها.

ـ ست نَورَست، تعالي شوفي شنو سويت..

ـ شكراً عمو، آني جاية وراك.

أوسعت خطاي لأتخلص من فضاء الدخان ووقفت قرب دفتر الزوار الذي يبدو بانها ثبتته منذ البداية.

مكتبة الفكر الجديد

رأيتها تتجول، ببطء مرة، وبتسارع مرة أخرى، تجتاز فصولاً برمقة واحدة، وتضحك ضحكات طويلة ومختنقة امام بعض اللوحات، اللوحة الأخيرة التي أَجريت عليها بعض التعديلات الخبيثة، لم تَستوقفها كثيراً، توجهت نحوي أو نحو دفتر الزوار، امسكت القلم المتدلي بخيط ازرق على المنضدة الخشبية، وكَتبت.

(19)

اللَوحة الأولى كانت مَجموعة كلمات إنكليزية، الشَعر المُستعمل فيها مَصبوغ ومُعالج، تَكَسَر بَعضه مع إنحِناءات الحُروف، الحَرف(C) في كلمة مَكنّزي مَدعوم من الوَسط بكُتلة كبيرة من الصَمغ، كوينج ماكوينج(COINNEACH MACOINEACH)، أَو كينيث إبن كينيث، هذه العبارات تَرتبط ببَعضها بالأَسهم وتَنتهي بإسم مَكنّزي الذي أُشتق منها في لسان أجداده الأَيرلنديين والأسكتلنديين، اللَوحة الثانية كانت خامة ذلك «التاتران» أو التَنورة الرجالية التي يَرتديها الرجال في أُسكتلندة، خَلفية شعر خضراء، تَتقاطع عليها خِصلات طويلة، بيضاء وصفراء دقيقة، لم تُعلق نَورَست بأي شئ حول هذه اللوحة..ولكن مكنّزي نَفسه يظهر في اللوحة الثالثة مُرتدياً تَنورته ومُعلِقاً يَديه بجِسم مركب بخاري مرفوع في المسفن.

«سعيد» صديقه يبدو تحته يناوله مفكاً صغيراً أو شعرتين ناعمتين معقوفتين.

الذي يمسك زكية من ظفيرتها ويعبث بْرآسّها هو مكنزي الأخ الصغير، الثلاثة النائمون والمتدثرون بمربعات من الشعر، هم تلك العائلة السعيدة،

مكتبة الفكر الجديد

سعيد وأبنه مكنزي وإبنته زكية.

رِفْعَت وجَودَت إبنا مكنزي الأخ، يمشيان معاً كثيراً، كانا نسختين متماثلتَين جداً، لايظهران الأ بصحبة عمتهم الست زكية، في صف «مدرسة بهلوي»، أو في صفوف سباقات الحمير، تتركهم يتجولون بين عمال الحمام.. ويعودان إليها، تطردهم، يقفان في باحة الحمام بين عشرات العراة، لكنها تطل عليهم من غرفتها في زاوية اللوحة، تجلسهم أمامها في صورة جماعية تضم طواقم التدليك والحلاقة والحجامة.وتمر اللوحات حتى تنفصل كتلتيهما ويظهران منفردين، رِفْعَت ينام ويدخن كثيراً لوحده..يتطوع في الجيش الليفي[15] الذي أسسته بريطانيا، ويظل يتنقل بين قاعدة الجيش في الحبانية وقاعدته في الشعيبة.حتى شهر مايس 1957، ليشنقه الناس بين الجموع في احدى ساحات العشار.

بينما جَودَت سعيد مكنزي، يكتب منذ صباه في الصحف التركية والعربية، حتى يصبح صاحب الأمتياز في صحيفة بصرة.

«غويلي العبد»، يعود الى حمام زكية طالباً المغفرة، لقد اصبح رجلاً، طاف ارجاء الخارطة، وتعلم اللغة الروسية وامتهن ترجمتها للجيش البريطاني.. عاد منهكاً بعد انقضاء الحرب العالمية الأولى، أطال شعر رأسه وشاربيه..لم يعرفه حتى أبوه (ابو غالي الحلاق)، كأنه يتخفى من شئ ما، هذا ما توحي به عيناه المتوجستان، فلم يعد يشبه غويلي في اللوحات الأولى.

نَورَست حكت صلعتها كثيراً وهي تصل الى نهاية القاعة، ولم تعد

15 حرس خاص من المجندين العراقيين معظمهم من الأقليات ، مهمتهم حماية القواعد الجوية البريطانية وغير خاضعين لخدمة العلم العراقي، ساعدوا القوات البريطانية في أحداث ثورة مايس 1941م وتم تجنيدهم وفقاً لمعاهدة الحكومة العراقية مع بريطانيا عام 1930م.

مكتبة الفكر الجديد

تضحك..خطوت باتجاهها لاني صرت اراها عادت الى وعيها، ولم تعد تمثل دور الزائرة الأولى.لم ألحق بها..سبقتني الى دفتر الزوار، دققت فيما كتبته، حاولت أن افرز الخطوط المتشابكة التي رسمتها..قبل أن ينزف قلمها خطا واضحا..زكية، كتبت زكية..وتركت تحت ذلك الإسم توقيعاً يشبه توقيعات السلاطين!.

لحظتئذ، انتبهت الى ساعتي..أرخت توقيت جنونها..تلك اللحظة التي ظهرت بها زكية، صلعاء ومخبولة، ترتدي بنطلوناً عسكرياً، تَمشي في الأسواق وتَنام تحت جداريات الرئيس الظليلة، يعرف الناس انها تحب الحمير... يقذفونها في تجمعاتها، تقترب من إذن كل حمار، تهمس فيها..اسماء معارك، يقال بأنها تكلفهم بالألتحاق بها..فوراً، الناس لايسمعون منها سوى تلك الـ(فوراً)، وهي تنقر رأس الحمار بإصبعها..

(20)

قفز حَياوي نحو صُنبوب مقلوب، كانت دِشداشته المَنشورة لم تَجف بعد، طَبانة كان ينظر إليه، نَظرة عادية قد تَستغرق زمناً، بالنسبة الى عُري حَياوي المُكتنز بالتفاصيل، نَفض حَياوي دِشداشته، حاول إرتدائها، نفَضها مرة أخرى، حاول قَلب وجهها الآخر، بَحث عن رَأسها وأَردانها، كل هذا وطَبانة لم تَنكسر انظاره بعد...

ـ ليش ما تجرب حليب البزازين[16]؟

سَأله «طبانة»، آملاً في توفير فَتحة في الوقت، تشغل حَياوي في فتحات

16 القِطط.

مكتبة الفكر الجديد

ثوبه، ويبقى هو يتابع خطوط مُلايَة التي بدت له لا تنتهي حتى تلج في فتحات حَياوي نفسه.

غرز طبانة قدمه ذات النهاية الفيلية في بطن سمكة كوسج متعفنة، كالعديد من الكواسج ونجوم البحر والخباطات الكبيرة والجريات المرمية على طول مرسى صغير في «ميناء الفاو»، ثبت نفسه، وأقعى اخيراً على مؤخرة قارب، مصبوغ حديثاً، وغطى بجثته الضخمة الكتابة بخـــط اخضر...«لَنج حالوب »1985.

حَياوي يلتهمه الملل كلما اقترح عليه طبانة وصفة جديدة، كلما دلاه على شباب سِيك في الفجيرة يمتهنون كتابة الأوشام..واقترح عليه عبارات كثيرة، مختصرة بدلاً من هذه الثرثرات على جلده، ولكن بعد فوات الأوان والمكان، كي يطبعها على جسده.

ـ ادري انا سامع كبلك بحليب البزازين، يمسح حته النساوة بس ووين اكو حليب بضراع البزازين!

ـ اكو، لو انته خايف تحلب بزازين شوفان ويشور بيك!

ليس بمستطاع أحد أن يؤرخ للقِطة الأولى التي حلت في ضريح شوفان، كما ليس بمستطاع احد احصاء عدد الأيلاجات التي أصابتها، لكي تنجب هذه القطط التي تنتشر في الدَربونَة كالحصى، انتشاراً افقياً وعمودياً، قد ينافس انتشار أي انتشار اخر لها في أمريكا اللاتينية، كونها البقعة الأكثر ازدحاماً بالقطط في العالم، كما يزعم وداد.

رائحة البخور والحرمل والعطور التي تبثها النساء على نحورهن، كانت تمتزج برائحة أرحام القطط وابوالها.قبل ان يفدن على شوفان زائرات ومخضبات جدرانه البالية بالحناء، وهن يشتغلن بسرد حكاياهن التي لاينبغي

مكتبة الفكر الجديد

سماعها الأ له، حتى ان وداد كان يميز زائرات شوفان في الأسواق من خلال بقع سمراء على نحورهن، لأن تفاعل العطر الكحولي مع اشعة الشمس يخلف هذا الزخرفة الخاصة على نحورهن ..

عثر وداد على فحولته من خلال سيرة بزونة صغيرة، متعددة الأسماء والأصوات، صوتها المنبعث من تحت ذكر اسود، دله على مركز اللذة في جسده، الذي سيقمعني به مراراً.

إلتفاته الى الأسفل، لمحها به، وليس كمثل حميد طبانة الذي يحتاج الى مرآة يدليها نحو جزئه السفلي كي يرى آلته، كونها بعيدة لايراها بعين رأسه مباشرةً، وملبدة بطبقات بطنه الشحمية .

أبصر وداد إذن، ذلك التحدب الغريب.

ايقظته امه ذات الصباح الشتوي، فصلته عن لحافٍ دافئ، وأوصلته بصينية فيها استكانة شاي، ودفعته صوب غرفة الضريح، كانت تستضيف اسطة بناء..يقلب الجدران برأسه ويلهج بارقام وحسابات عن تكاليف ترميم السقف...ويبدو ان اسعاره أغضبتها..

-شدعوه، قابل هوه مال الخلفوني، بوية هذا تابع للرواية، الكاتب هوه كفيل بيه، روح روح تفاهم وياه، شوفه وين بيا دحيسة جاي يكتب بينه.

يبدو ان لهجة اَسطة البناء الميسانية أعجبت وداد فَظَل واقفاً، لايعبأ بِصياح أمه، الأسطة لم يُطل كثيراً، تركها تهدأ، ثم دنا منها، واَبلغها عن ذلك التحدب الذي لم تَستره صينية الشاي عند وداد، وأوصاها ان تزوج ابنها عاجلاً.

حظيت به أمه مرة أخرى، وهو يعالج تَحدبه العالي، من خلف مشبكات الضريح، حيث تَئن «حودة» البزونة الصغيرة تحت ذكر ابقع وسمين، الصورة

مكتبة الفكر الجديد

لا تتكرر دائماً، لأنها أقفلت قنوات الذكور منذ زمن حَياوي، لأسباب لم تظفر بها نَورَست حتى.

وأن تحبل حودة، فهذه ظاهرة!، زعمت مُلايَة ان شوفان هو الذي دبر لها محولة الكهرباء في اعلى العمود، كي تقفز عليها وتحترق بأجنتها، قبل ان تلدها..

(21)

هناك إناء طيني خاص، لنَتف الشَعر المُحيط بخِصيتي القط الذَكر، لازال مَدبوغاً بألوان الشَعر، السوداء والبيضاء والرمادية والصفراء، ربما كان بقايا تَنور فاشل، أخفَقت مُلايَة في السيطرة على إنحناءاته.

مع إنها تَوقفت عن مزاولة ذلك منذ زمن حَياوي، الأ إن ذاكرتها تَحفظ ذلك، بحثت مرة لنَورَست عن أَداة تُشبه المخيط تَستعملها لسحب الخصيتين الى الخارج، وبعد أَن تَمطها وتَهرس الحَبل المنوي وتَعقده عقدتين أَو ثلاث، بِفضل الأستطالة الملائمة التي صَنعتها بهما...تَقطع الخِصيتين.

ولايلاحظ حَياوي ذلك، لأن الخصيتين تضيعان مع ما ما تنتزعه مُلايَة من اجواف السمك وتقدمه للدجاج، او القطط.

استفادت نَورَست من تلك الأداة في مشغلها، ووافقت مُلايَة في استنباط اسم لها، يرتبط بوظيفتها في تخليص المكان من روائح الذكور الشبقة الكريهة ومن ابوالها، ومن عراكها الضاري.ويأس حَياوي من اضرع القطط.

ولسنوات طويلة، لم تعد الذكور تسور منطقتها الخاصة بالبول، وارتاحت الدَربونَة من معارك القطط، خلالها اصغت مُلايَة وأولادها الى المواء الخالص،

مكتبة الفكر الجديد

الذي لايعني سوى الجوع.

ورأت مئات القطط تقوس ظهرها وتوقف شعرها وتجر القطة الأخرى للنزال خارج الدَربونَة، أو تثني ذيلها بين أرجلها كتقديس للمكان وليس دلالةً على الهزيمة بكل أنواعها.

ماخلا، صوت مواء واحد، بقي وداد يسمعه حتى بلوغه الناضج، صوت نونوة حزينة...مأثور للناس جميعاً، ممن يألفون ذلك الحيوان...(وداآآآود)، انه نونوة الأناث الطالبة للجنس، وإذا كان لتسمية وداد قصة وحادثة، فربما كان هذا الصوت الذي سمعته مُلايَة كثيراً، سبباً لاواعياً في تسمية ابنها، رغم انها قالت له مراراً..بان القطط تصوت..داوووود، لا وداوود.

في شتاءات الأعوام 1985,1986,1987، بينما الرهبة تزحف من قدحات أسلاك الأعمدة الكهربائية، الى مدين الصغير المدثر بلحاف أخيه القديم، كانت نَورَست تقضي الليل عند مُلايَة، اما لانها تأخرت ولايمكنها العودة تحت نيران القصف، او لأن مُلايَة فتحت من حجرها صندوق السوالف الكبير، ..في إحدى الليالي عمدت المجنونتان الى اخصاء قط أسود سمين، إذ كان يَرش بوله في منطقة الرواية.

لم تفهم نَورَست هذا، لكنها قبلت بالفكرة، بدافع التشفي بذلك الذكر الذي كان يمد انفه ويفتح فمه نصف درجة حينما يجتاز خط الرواية، وهي دلالة على اشمئزازه من الرائحة حسب مُلايَة.

مكتبة الفكر الجديد

(22)

هُناك دقيقة واحدة في العشار، أَتَمتع فيها بقدرات خاصة، ليست دقيقة بستين ثانية بالضبط، كما إنها ليست دقيقة من تلك الدقائق الدارجة في اللهجات الشعبية، بل إنها أَقصَر بكثير، ربما تَعود إلى عام «الإنّك شَي» أيضاً أو قد تكون إحدى أجزاءه الزمنية!.

أُسَميها دَقيقة لأَنها تلك الوحدة من الزمن التي يمكنني الشعور بها عادة، او الزمن الذي يمكنني حساب بدايته وانقضاءه، ويمكنني التوقيت لها بواسطة شَواخص من الجدران، وأتقن تذكرها وإضافة تفاصيل جديدة الى تفاصيلها المطاطية، احياناً أضيف التفاصيل المعدة مسبقاً مباشرة واقحمها آنياً في تلك الدقيقة، كما حدث يوم عثرت على وِداد ورأيته لأول مرة.

رايته لأول مرة، وأنا اعرفه منذ سنوات، فَركت كَفيّ كالساحر، ورَتبت حيلتي لكي لا يطيح هذا الإبليس الصغير بتفاصيل الدقيقة.

في زقاق ضيق من ازقة العشار العميقة وشبه السرية، شعرت بان دقيقتي بدأت، في 3-4-1992، كنت اخطو بحذر، نائياً بأصابع قدمي من مياه الزقاق المتلونة، كنت اشعر ببعض اصابعي يتدلى من حافة النعال كأنه ذلك الطفل النعسان، الذي يضع يده على خده في لوحاتي الأولى، القديمة التي قلدت فيها وجوه الملائكة في اللوحات الكنسية.

تَنزاح عدة الخطاط الجوال عن كتفي، وأَمشي، مع ان رأسي منكوس جيداً، لكن مياه الأزقة المتلونة تتشعب بين اصابعي، تبلل باطن قدمي، اعرف بالضبط، اين يكمن ذلك المطعم الخجول، الذي يزدحم فيه غير الصيام في هذا الرمضان البارد، اعرف جميع كائناته، وكم قذفت من حسرات على

مكتبة الفكر الجديد

باب مطعم الكبة المغلق في تلك الظهيرة، لم اتوقف، رِفْعَت رجلي، كي انجو باصابعي التي بدت زرقاء، وخلصتها من المياه، انعطفت بتلقائية معهودة نحو زقاق المطعم.

في هذا الرمضان، توسع المطعم ليصبح مقهى وسينما ومطعم ايضاً، لذلك لم أرَ عماله كما في كل مرة، توزعوا بين الأقسام الجديدة، انا لا اعرف اسماءهم، انما احفظ اصواتهم واشكالهم، واضبط درجة الصوت التي ينبغي ان اتوخاها حينما انادي على احدهم، حدث فجأة حال دخولي، ان انسحب الكثير من رواد المطعم نحو الجزء السينمائي، كان تلفزيوناً كبيراً، تعلوه مزهرية فيها ورد اصطناعي، استطعت ان اتخيل في دقيقتي السحرية، النقاط السود التي يخلفها الذباب عليها، تحلقت حول التلفزيون كراسي وتختات وقنفات ورؤوس، التفت صوب الشاشة مستفهماً سبب هذه الأنتقالة السريعة، لم اتمكن من رؤية شيء، هذه المرة بسبب ضعف بصري، انا اَتمكن من تخيل الأشياء التي رأيتها فقط.

عَثرت على طاولة خشبية، لا تَنتابها أصوات المتفرجين وصفيرهم، ولا تهزها طرقات قطع الدومينو، كما ان اصوات المضغ الصادرة من افواه العمال والباعة الجائعين، لاتطالها ايضاً.

كيف فاتَني ان أرى إن رجلاً بيافوخ ضخم قد سبقني إليها، لم اتنبه الى حيلة لتغيير مساري، سلمت وجلست، رد السلام بفمه المزدحم بتفاصيل لفة مشكلة من الفلافل والباذنجان والبطاطة، انتظرت حتى ينتهي اكلته، تاملت في خطوط وجهه، وهي تصنع مويجات اثارت حساسيتي للرسم، كنت قد تركت العمل في مرسمي المشترك مع «فريد جنديل» في شارع الوطن، خرجت بمجموعة من العدد، ومسودات وقوالب زخرفات نباتية،

مكتبة الفكر الجديد

واكداس من الجرائد والمجلات، لشد ماكان تزعج فريد.وتضيق المرسم الصغير.

ليست هي طبعاً حصيلة عشرين عاماً، شاركت فيها «فريد جنديل» بهذا المرسم، انما كنت اتخلص من بعض ما يتراكم منها دورياً، وهذه كانت الحصيلة الأخيرة المصاحبة لفض الشراكة الطويلة، بصورة هادئة وغريبة، اضطر فيها فريد لمصارحتي بالأمر الذي واضبت عليه، مع انه كان يعلم به منذ البداية، وكنا متصالحين عليه بصمت، ولما قرر بيع المرسم واستحصال حصته التي تبلغ مئتي الف دينار، ليسافر الى عمان، رتب لقاءا اثيراً، وكلمات مملة..لخصت له بعضها، واوصلته الى المضمون بعجلة..(تريد نفض الشراكة مو...صار، بيع المحل وقسم فلوسه وابوك الله يرحمه).

هذه الكلمات أَوحَت له بأنه سيخرج باغياً بعد هذه العِشرة، فَلمح بذلك الأمر من سيرتي..كي نختم الجلسة، وأكون انا الباغي الذي لاينبغي مشاركته، الذي لوث سمعة المرسم والشارع والزبائن، بل لوثه هو شخصياً.

أَخرجت بعض الكلمات من جوفه ايضاً تعينه على نفسي..وشتمت نفسي، وذكرته ببعض القصص والحوادث التي نسيها عني، كي انهي هذه الجلسة، واقفل على زمن مرسم شارع الوطن، الى الأبد.

غادر فريد الى عمان، واتصل بي بعد خمس سنوات تقريباً، يعتذر ويَبكي ويضحك، اوصل لي بيد أَخيه، الموظف في شركة الأسمدة، كيس من الكرزات من عمان، وعلبة كوكولا، كانت تعتبر شراباً نادراً جداً، في تلك الأيام، وكانت بعض العوائل توزعه على افرادها وضيوفها باقداح صغيرة، كانها روح مختصرة لشراب ملكي.

إِدخرت جزءاً من المال، وصَممت عدة الخطاط الجوال، كونها تَنسجم

مكتبة الفكر الجديد

تماماً، مع هوايتي في تمشيط الشوارع والأزقة القديمة، كنت اكتب (الدار للإيجار)، و(الفاتحة لروح المرحوم..) و (المرحومة فلانة..)، و(اشرب الماء وتذكر عطش الحسين)، و(مأكولات يوسف الشهيرة)، و(الحاج أبوعلي الشهيرة)، و(كص ومعلاك الحاج فلان)، و(القابلة المأذونة لزرق الأبر والتداوي) و(فريق أشبال التحسينية) وو..

كنت أَهوى العبارات التي تنسخ الأماكن وتستبدلها، وضع عنوان على يافطة يغير أَدناها الى وجود آخر، ولي آثار لا تغفرها الأنظار في هذا الميدان، كنت اقترح على ارباب البيوت التي تعاني من رمي الأوساخ والقاذورات على جدرانها..ان يستبدلوا تلك الشتائم..(حمار ابن حمار الي يرمي ازبالة هنا..او الذي يتبول هنا)، كنت اقترح كتابة عبارات مقدسة..من تلك التي تبدا بـ(يا).وكان الأمر ينجح في شوارع نظران والتحسينية والطويسة والمناطق الأخرى التي كنت اجوبها.

أَنهى الرجل أَكلته، وكنت خائفاً من ان يطلب سندويشاً آخر، لكنه ظل يبادلني نظرات متقطعة، ويحرك لسانه منظفاً لاضراسه، لم يكن من النوع الذي اهوى، لكني افترض دائماً، تلك النظرة المقصودة، لاني كنت اتعرش مرحلة مهمة من عاداتي في سن الثانية والستين، انتبه الرجل الى اصابع احدى يدي تتحرك مع القلم تحت اليد الأخرى على لوحة الطاولة الخشبية، راوغته مرتين او ثلاثاً، مستذكراً طريقة الرسم بالخطوط الدقيقة كتلك التي تحفل بها أوراق العملات النقدية.

لم يتمكن الرجل من التلصص على شئ تحت يدي، بل لم يَتمكن من العثور على وجهه على الطاولة، لأني كنت اغطيه باصابعي، نَهض اخيراً، إنحنى تحت الطاولة، أَحسَست بأَنه يَنظر الى قَدمي او الى اَصابعي الوديعة،

مكتبة الفكر الجديد

حرك شيئاً تحت الطاولة، سَحب حقيبة وكيس نايلون، حَملهما وذهب، فعرفت إنه مسافر.

رَفَعت رأسي لأُنادي على أحد صبية المطعم، أتذكر بأني صحت بعدة أصوات، وخرج مني صوت لا يلائم عمري، وما اكثر تلك الأَصوات التي كانت اصغر مني، وحده وداد، اَبْصرني من بعيد، حمل صينيته، التي اسندها على كرسي، بينما كان يتابع ذلك الفيلم كالجميع، تحرك باتجاهي، شعرت برجفة لم اشعر بها قبل هذا، إنهُ هو، ليس لانه ذات الصبي الصغير، في صُور وداد، او في صور ابو ثورة ـ ابو رحمن الشمسية، بل ان دقيقتي التي لاتخطئ، انبأتني بذلك.

رأيته فشعرت بالخوف والجوع والحب، التفتُ ابحث عن شئ آخر،قبل أن ابدأ هذه الأُوديسة،خَمسة دقائق إنّكشية حَرَقتُها في النظر الى لوحة زيتية مُعلقة أمامي، صورة جميلة لبنايات الشناشيل المُطلة على نهر العشار، كأن رَسامها يجلس أمام مَدخَل سوق المغايز وينظر الى «ساعة سورين»[17] القديمة، المنتصبة فوق عمود يرتفع من سياج النهر، تَمعنت في الصورة وسط اصوات الناس وصيحاتهم على وداد..«ابو سمرة»، «وديّد» ،العازف»، «الرَسام»، «الإنكلّيزي»، إكتشفت إنني اجلس الآن خلف ساعة سورين في اللوحة، تماماً في ذلك الركن البني يقع هذا المطعم، هُدم هذا الركن قبل أعوام مع الساعة، لكني أَستطيع أن أرى نفسي فيها داخل المطعَم...إنتهت الدقائق الإنّكشية الخمسة!.

17 ساعة قديمة كانت عند نهاية سوق الهنود في العشار هدمها محافظ البصرة الأسبق في العقد السادس من القرن الماضي.

مكتبة الفكر الجديد

فلأُناديه...لايبدو محترماً، بين رواد المطعم أو بين عماله، ولايبدو انه يبالي بذلك، عيناه أذكى من العادة، كصبي في السادسة او السابعة عشرة، لا أَعتقد باني كنت أَنظر اليه بدِقة، لأَن عيني بللتهما الدموع، بينما جفت أصابع قدمي الوديعة.

إزداد طوله بعض السنتمرات، مع ان نَورَست كانت تقول بأَنه لن يطول اكثر من المئة والستون سنتمتراً التي كان عليها قبل أعوام.بشرته متجانسة من حيث اللون، ربما لأنه لايغادر هذا المطعم كثيراً، فلا تكسبه الشمس سواداً على سواده، هناك بعض التقرحات على شفتيه، وبدايات واضحة لحب الشباب اسفل وجنتيه، ماذا اقول له..لا استطيع ان اخاطبه، أَفشل دائماً في الكلام مع من أعرفهم أَكثر مما يعرفونني.

حينما رَسى سَواده بالقرب من بياضي، بلغت دقيقتي إشتعالتها، احترقت الأف الذكريات والصور، ولابد ان لذة قربه مني وقتها، كانت لذة التمتع بتلك الحرائق الداخلية.

مَلكني ذلك العبد، وقتئذ، وسَيبيعني في كل مرة، لأهرب اليه، كنت يَقظاً جداً، لكنه هَز كتفي، (حجي..حجي)، ثم ابتسم، وهي الأبتسامة التي لن أنساها، لأَنها لن تَتكرر مرة ثانية، بعد أن يَعلم بأنه مَلكني.

لَلمت وجه المسافر وخبأته كي لايراه و يشغله عني، قال لي ماذا تطلب، لم أقل شيئاً، استمر باعتباري عجوزاً نائماً ومتعباً، قال لي بانه سيجلب لي شاياً، ابتسمت، تابعت قوامه يستدير ويغور بين الرؤوس والصرخات.

ـ تفضل حجي..

عاد بسرعة، ووضع الأستكانة بهدوء، وغاب من جديد، مازح احد الشباب، وحرك له إصبعه بَوضعٍ ماجن، ثم نظر الي من بعيد بتأثير نظرتي

مكتبة الفكر الجديد

الموصولة إليه، شَربت الشاي، وتَحسست حِرقة الصَدمة التي ستعيدني الى تلك الدَربونَة من جديد، قررت ان أرى زكية واخبرها باني رأيت وداد اليوم، غيرت رايي بعد دقائق، كي لا اشعرها بانني اتواصل مع عائلة دَربونَة العبيد، انتهت الأستكانة ..لا ادري، ربما فرغت هذه الأستكانة برشفة واحد استغرقت فيها مدة التفكير و التدبير، عاودت الشَخبطة حول وَجه المسافر، أطرته وزخرفته و وَضعت عليه مُستطيلاً و أَرقاماً وتوقيعاً.

نَهضت وتَوجهت نحو الباب، مخاتلاً نفسي في عدم النظر الى وداد، نفسي لم تزل مرهوبة من قصص أخرى مماثلة عن شباب صغار، لاشك إنها كانت أعراض البدايات التي تنبئني بها الدقيقة، ولو واصلت النظر الى وداد، ربما لن استطيع الوصول الى البيت، سأَسكن هذا المطعم، وسيقتلني الشوق، وسأقتل كلما تبقى من وقاري في حضرة هذا الأسود الصغير.

ـ حجي ..ما دفعت فلوس الشاي...

سَمِعته، فَتوقفت عن الحركة، كما لو كنت اترقب سماع صوته في ايه لحظة وانا اجتاز باب المطعم..لم اكن لأفر من دفع الحساب، فليس هذا من عاداتي، لكنني كنت أمر بنوبة خبال معتادة حينما المح ذكراً اسود، تعجبني تقاسيمه وسحنته القوية.فأنسى عدتي ومتاعي.

ـ هناك..عَمّو على الطاولة.

أشرت له بيدي، التي لازالت تعتصر القلم، هناك...فَعرف باني تركت ورقة مائة دينار، حملت عدتي المركونة على الباب، ومضيت، متلفتاً، كنت اتخيله، يهرع نحوي..أيها المحتال، ايها الحرامي، انها ليست عملة مئة دينار، انها مزورة، إنها مجرد وجه لعملة مرسومة رسماً، كما إن هذا ليس وجه الرئيس عليها، كما هو حال كل عُملات المئة دينار الورقية، إنها صورة رجل قبيح

مكتبة الفكر الجديد

يَلوك «صمونة».

قبل أن أَنعطف حيث لا أرى باب المطعم، تأكدت بأنه لم يتبعني، وما من أحد مَد رأسه حتى ليتفقد اثري، لا أدري لماذا فعلت ذلك، كنت أتوقع بان هذا سيمنعني من الوفود إلى هذا المطعم مرة أخرى، ومن تصفح وجة وداد يومياً، لذلك أكملت أيام رمضان الباقية صائماً، جوالاً، أتسلل احياناً تحت الجسور، أنام وتُوقظني أضواء السيارات في الشارعين الذين يربطهما الجِسر.

يحظى بي بعض الشباب النازلين تَحت الجسر، فاعرف إني زاحمتهم على مكان مشربهم، استيقظت مرة على صوت أذان المغرب، وكم هي مربكة استيقاظات كبار السن وسط الضوضاء، إحتجت إلى عشر دقائق كي اتصل بالواقع، كان احد مجانين العشار يستحم من أنبوب مياه ينحدر على ضفاف الشط القريبة من اسفل الجسر، الرجل مسن ايضاً، وعارياً تماماً، التفت يمنة فوجدت آخر عارٍ ايضاً، يَجلك كعوب قدميه بحجارة اخضرت بفعل الطحالب، خجلت من الخروج من ذلك المكان، كي لايظنني الناس ثالثهما، هذه المرة لعنت نفسي، وجلست القرفصاء ابكي تحت الجسر، ساعدني وجودي تحت الجسر كي أعتصر المزيد من الدموع، قلت لم لا ابدأ قصة جديدة، مع وداد مثلاً و مع غيره، تباً ل«فريد جنديل»، من يعبأ بسمعة رجل في الثانية والستين، فليذهب العالم اعلى الجسر الى الجحيم، تسلقت العشب، تعثرت، نهضت، تلوثت ثيابي بالأتربة والمياه الأسنة، خرجت الى عالم الفوق، تحسست المال في جيبي، قصدت السوق، واشتَريت عَنباً وتُفاحاً اخضرَ، صغيراً وحامضاً، وانا أعرف بان أسناني الجوراسية لن تقضمه.

تَوجهت الى منزلي، وكان في البصرة القديمة وقتها، بيت قديم ذو طابع

مكتبة الفكر الجديد

تأريخي، إقتسمته مع عائلة من ثلاثة افراد، واخذت طابقه العلوي ذا الشناشيل، كانت الأم قد أفطَرت، وكذا كل من لاقيتهم، في الطريق، قلت لنفسي..بأني أكاد اسمع صوت اللبن الخائض في كروشهم، سَلَمت على الأم التي افترشت لها بسطة صغيرة على الباب، كان علي ان أجتاز ضخامتها بخطوة عالية وسريعة، وجدت الولد الطالب في كلية الزراعة، فسلمت عليه، ورد السلام دون أن يَستغرب ذلك، كوني ومنذ أن حملت عدة الخطاط الجوال لم أُسلم عليهم، ولم اعد اسلم على الكثيرين في هذه المنطقة التي يشدني إليها كوني على بعد امتار معدودة من دَربونَة العبيد.

لم أتمالك نفسي في الصباحات القادمة، حاولت دون جدوى أَن أُشغل نفسي بقراءة قصص انكليزية اشتريتها بالجملة من بائع رصيف، أفتح صرتها التي اشتريتها بها، اقلب بعضها، واجد نفسي مستمتعاً في تصفح اهداء كل كتاب، ثم ارجعهم الى الصرة واوقفلها وافكر في قضاء اليوم دون التفكير بوداد.

تَركت العيد ينقضي، وخرجت قاصداً المطعم، كان جسدي كُله يخفق، وحُبي لوداد بَلغ شِغاف الشغاف من قلبي، لم أضمر شيئاً لطوارئ الأحداث، حتى عدة الخطاط الجوال لم احضرها معي، معدتي كانت مكتزة ايضاً، انا ذاهب لرؤية وداد فقط، دخلت المطعم وكان أقل ضجيجاً، وذلك لم يشعرني بالخوف، لم التفت ولم اتلكأ في مسيري نحو طاولتي الخشبية، لاحظت وداد من بعيد يراقب دخولي وجلستي، قصدني بهدوء، لم يكن ينادي عليه احد او يشتمه هذه المرة، وقف امامي وقال لي:(شنو تؤمر حجي).

طلبت منه استكانة شاي، ذهب وعاد مسرعاً بها، وضعها على الطاولة، وعاد، فتذكرت موضوع عملتي النقدية، رأيت بانها ممسوحة، بينما وداد ينظر ألي من خلف طاولة أخرى طولية قرب نار الأباريق الموقدة.

مكتبة الفكر الجديد

(23)

أَستطيع ان أَرسم، أَستطيع أَن أَكتُب، أَستطيع ان أَتكلم الأِنكليزية مع قليل من الفارسية والهندية والمَندائية، أَستطيع أَن أَرسم لك خارطة العالم، بتفاصيلها الناتئة، ..أَخبرني وداد عن مَواهبه التي لم اكن اجهلها ابداً، رَفع من أمامي إستكانة الشاي وَوضعها على صينيته ثم بَسط كفه وقَربها من وجهي!

ـ الباقي...

أَعاد لي بكفه ماتَبقى من المئة دينار، رسم عليها عملتين العليا منها بان عليها وجه الرئيس بتفاصيله ...أطبقتُ اصابعه بنفسي وأَنا اعالج الرعب في صدري، لا أَحد يَنظر إلينا لاتخف، قال وهو يلين لي أَصابعه...

في أَيام لاحقه، سوف لن أَرى أَصابعه هذه مرة أُخرى، ستَختفي أو «تطير»، كما سَيُعبر هو عن ذلك.

وافق أَن يعمل معي في الرسم، وأَفتتحنا معاً مرسمي المؤجر في حي الجمهورية، كنت أُراوغ نفسي واعطيه أَكثر من مايستحق، أُعطيه ويعطيني، أُعطيه ويعطيني، أَعطيه ويعطيني، أَجرة على عمله الدؤوب معي...شَيئوه الملتهب بين فخذي، كل يوم، كل يوم..هل أَفشيت إِعترافاً ما ...الآن؟.

حينما نَنتهي من تلك العطاءات ..كنت اعيده بصعوبه الى تَسلسلاتنا الكونية، انا اكبر منه بخمسة وثلاثين عاماً، وانا صاحب المحل المؤجر وهو يعمل عندي، ووو الخ من الثوابت التي يضيعها بعد ان نمارس حفلة الجنس اليومية تلك.

ثم أَسألهُ عن امه وانا اعرف انها انتقلت بالعائلة الى الحيانية تبيع مشدات

مكتبة الفكر الجديد

شعر البنات وعلب الكبريت والصابون والديرم والخريط في سوق الأرامن، ولن اسأله عن سوق الأرامن الذي يقع في قلب حي المَثَلثْ، ذي الدماء المتجلطة..

لأني أعلم ان «سوق الأرامن» ترتاده إمرأة أَرمنية واحده فقط وإسمها «كيغانوش»، ولن انتظر من وداد ليجيب بان سوق الأرامن هو تحريف شعبي للفظة سوق الأرامل.

(24)

الهروب الى المُدن القابعة خارج الرواية، لايعني الأِفلات منها، لا زالت مُلايَة وأَولادها، مُعلقين على ألواح الشعرً تَعبث بهم الريح في مكان ما، خرجوا من تَخطيط أَولي قديم، ولم يخطر في ذهن تلك العجوز السوداء بأني لازلت أَنفخ في فم الرواية، أملاً في تزويد شَخصي المغمور فيها بأَوكسجين الظهور!

كانت تجارة العَتيق من البلاستيك والألمنيوم وحتى سكراب الحديد، رائجة في أَيام الحيانية تلك، كان شبابها يجوبون اقضية البصرة واحياءها الراقية بحثاً عن الخردوات والأدوات المنزلية المستهلكة، وصاحب اشغال مُلايَة لبيت ينحدر عن شارع في اقصى حي المَثَلثْ(عد لي فيه وداد خمسة وثلاثين حماراً ينهقون احياناً بالتتابع)، ظهور تجارة شراء الشظايا، وارسالها الى بغداد او الى مصانع في شمال المدينة لصهرها واعادة تشكيلها كأوان وقطع غيار للسيارات والمعامل، من قبل الدولة ومن قبل الأفراد احياناً.

مُلايَة المغامرة، اقنعت الكثير من نساء سوق الأرامن في تأجير احدى

مكتبة الفكر الجديد

تلك اللاندكروزات في كراج الحي، التي يصيح سائقوها فجر كل يوم..فاو، سيبة، ميمونة، سلام، المجر، المزارع.

الفاو والسيبة للرجال والنساء المشتغلين في جمع الشظايا من القفار والمواضع العسكرية القديمة و المهجورة.

«الميمونة» و«السلام» و«المجر»، لإيصال بعض النساء والعوائل الى أقاربهم هناك، حيث تعود أُصول الناس في حي المَثَلثْ الى عشائر كانت تقطن الحدود الجنوبية من مدينة العمارة.

أما «مزارع الزبير» و«سفوان» فكان يَقصدها جامعو العَتيق ممن يُقايضونه بالحلويات والمثلجات و السلع المنزلية المصنوعة من النايلون.

تَنتظرهم السيارت في تلك الأماكن وقت زوال الشمس، ليعودوا إلى الحيانية ويكيلوا حصادهم ويتقاضوا عليه .

وداد كان يتغيب أيام الجمع ليرافق أمه هناك، الجمعة الأخيرة عاد وداد مع لفافة كبيرة تكفن يده اليمنى، ظَننته يخفي تحتها مقلباً، ولم يبالِ بتجاهلي ليده المصابة، حتى حدث أن فتحها ذات يوم بعد ان تلوثت بالألوان، فكانت كفاً بإصبع واحده، تركها تنام بين كفي، لدقيقة!، ثم حرك تلك السبابة، وقال لي..أنها بطيئة الحركة ايضا.

هل سَتحدثني ..كيف حدث ذلك ياوداد؟، سأكتبه لك يوما ما بالأنكليزية او سأرسم لك خريطة الحادث، لست مجبراً على العمل ولا أظنك ستمارس الرسم سأعطيك مصروفاً يكفيك انت وعائلتك اركب تلك الحافلات الصفراء واذهب الى بيتكم في الحيانية وارتح من التعب؟لا عليك استطيع ان ارسم الرئيس حتى برجلي مثل شعوانة العاهرة والرسامة في الزمن العباسي التي ترسم برجلها أفضل من رسمها بيمينها؟ارتح لمدة أسبوع لتحافظ على

مكتبة الفكر الجديد

سبابتك من التلوث؟أمي تدهنها بالحناء و معجون الطماطم وأنا نائم كل ليلة؟، أخاف عليك..، لا تخف استطيع ان ادخل عضوي بيدي اليسرى.

كان يبدو طفلاً في المحاولات الأولى و في الأيام الأولى لإفتتاح المرسم في حي الجمهورية، لكنه بدأ يكبر كل يوم، في كل اجتياح باسل يرتكبه بمؤخرتي، كنت اشعر بذلك العبد الجميل ينمو، ينمو، ويتقن المزيد من الفنون التي يجدها بإنتظاره في أمعائي الصدئة، اما الرأفة على جسد الشيخ المنحني على الألواح والخرائط والتخطيطات، فكانت تتضاءل في نفس ذلك العبد كل يوم.

حتى حينما تجبرني العادة على الإنبطاح تحت جسده كل يوم، كان يكبر، رغم انه يبدو منفذاً لايشعر باي لذة بل ارى وجهه الذي تعكسه لوحة المنيوم..أراه ينظر الى خريطة لمدينة الحيانية رسمها قبل مدة، بينما انا كنت انظر الى تخطيط اولى لجدارية مدخل الحيانية التي كلفت بتصميمها.

هل ستذهب مرة أخرى الى الفاو؟، لازالت هناك آلآف الأطنان من الشظايا وهذا يعني ملايين الدنانير؟،أُسكت...لهجة حب المال وجمعه غريبة على من مثلك؟، أتصنع فقط ...إنما أريد ان أُنهي خريطتي..

سأعرف من خلال آلآف القصاصات التي شخبط فيها وداد بأنه مولع كذلك بفن الخرائط، وأظنه رسم عشرات المدن بشوارعها وازقتها، وستبدا منذ ذلك اليوم رحلتي الجديدة، سيدوخني عشق هذا الولد، سيسكرني حتى الجنون، سيجعلني ابحث عن نفسي في خطوط الخرائط وشوارعها.. وسأعثر عليها مراراً وبسهولة، بين ازقة العشار الرطبة، وتحت الجسور، بعد ان أخبرته بمساراتي المعتادة، فكان يضع في خرائطه خطوط منقطة تدل على الأماكن التي لايمكن مشاهدتها من زاوية علوية، كما في تصاميم العمران،

مكتبة الفكر الجديد

وكأسفل الجسر مثلاً، لذا كنت اعثر على نفسي دائماً بين خطين نقطيين.

إفرش لي خريطة كُنوز الشظايا في الفاو والسيبة لأرى كيف حصلت لك هذه الأعاقة، حاضر أستاذ...، ماهذه الخرابيش، إنها الشظايا الموزعة عشوائياً، وهذه الأعواد السود، نخيل محترقة، وهذهِ النقاط السود المختلفة الأشكال، انهن نساء حي المَثلثْ..

(25)

تَطوف النساء في خَرائط وداد في لون رمادي ثَقبته نيران الحرب وحَولته الى أَرض سَبخة و مُنَقطة، تَشخص فيها أعواد النخيل السوداء، بعد أَن أَطفأتها الأمطار ولازالت تَغسلها كل عام، مع رُفات الأَحياء الأَخرى وبقايا العجلات والملابس العسكرية، فَأصبح لذلك العراء المُمتد من بساتين الموز في السيبة الى علاوي السمك في الفاو، عِطراً يدل عليه، يَحفظه أَنف «كيغانوش» بإقتدار، فَتهم بالتَصفير، لكي تَلفت إنتباه الأَخريات ويتَحلقن حولها، فهي رُغم مكابراتها تَشعر بالخوف، حينما تتَضاءل النقاط السود في الأَفق التي تَعني زميلاتها المبتعدات بأتجاه مَسارات الشظايا المغرية.

حتى لو خَرجن كمجموعات، فأن الحكايات ستَنتهي، حتى الأَصداء ستتآكل، وستتفرع المسارات، وتنفرد، وستجد كيغانوش نفسها وحيده كما في كل مرة.

تقول لها مُلايَة .... وهي تسلمها اكياس الطحين والرز الفارغة :لاشئ يدعو للخوف هنا، لأن..لاشئ هنا.فتنظر الى الكيس وتَضع له تدريجات من خيالها، الرُبع يعني خمسة كيلوات، والنصف الى حد الكتابة يعني عشرة

مكتبة الفكر الجديد

كيلوات. سأصل الى هذا المستوى قبل أن ينتصف النهار.وتضيف بالأرمنية وبصوت خفيض:كيف بَنَت زوجة هاشم هذا البيت ذا الطابقين من أكياسٍ مثل هذه!!!.

تَمشي وتَلتقط مُكعبات ومجسمات الشظايا، لاتطأ على الأرتفاعات الناتئة من الأرض، كما أوصتها مُلايَة، ولاتدخل جحور الحيوانات الفارغة، ولاتماشي رجالاً...

يمكن لأحدهم أن يمشي عارياً دون أن يبصره احد، قالت..انا الأن نقطة سوداء في أَفق بعيد او قد ابدو للبعض كجذع أسود سحيق، وخلعت عباءتها، وثوبها لثوان بسيطة وهي تركض ثم ارتدهما بسرعة .رات رجلاً نائماً خلف تَل، غيرت مسارها، سمعت أصوات ضحك ونَحيب أطفال ونُباح وصفير...أَشعرها الأمر بالأمان.

سَمعت صوت صُراخ مُتقطع، فَهربت نحو إشارة الشاخص التي حَددتها، ثم رافقت مسير الشارع الذي وصَلته لاهثة، وعادت بنصف كيس، بينما عاد الأخريات بأَكياس كاملة، قَبلتها مُلايَة لأنها تأخرت، صعدا الى السيارة، حَمل وداد الأكياس وربطها الى سَقف سيارة اللاندكروز، وإتجهوا الى البصرة، نامت كيغانوش على كتف مُلايَة التي تراخى رأسها وارتاح على رأس كيغانوش، بينما وداد ينظر الى نَورَست المجنونة وهي تضحك مع نديمة صديقة أَمه الشابه، والتي تحشو صدرها بالقلاقيل كما يقول وداد، فيبدو أعظم وأعظم كل جمعة.

في الجمعة التالية...تأخرت نديمة كثيراً، تأخرت حتى الغروب، عَنفتها مُلايَة وهدَدتها بالطرد من السيارة وتركها تعمل لوحدها.

بعدها ظلت «كيغانوش» تأنس بمرافقة وداد، يتركان نديمة ونَورَست

مكتبة الفكر الجديد

تختفيان عن أُفق النظر، وتظل كيغانوش أو «تيره» كما يسميها تماشيه وبينهما مئتا متر تقريباً، ولما كانت تيره ترعبها الأصوات القادمة من خلف التلال ومن داخل ثقوب الأرض، فإنها ترفع رأسها وتحيي وداد الذي يرفع كيسه لها عالياً، بين وقتٍ واخر، في إحدى المرات رفع لها كيسه وشيئاً آخر بيده الأخرى، فعرفت فيما بعد انه عثر على طلقات بندقية واغلفة رصاصات لازالت محشوة بالبارود، اعجبه شكلها، فلفها في خرقة ووضعها تحت حزامه...

رِفْعَت «كيغانوش» كفها من بعيد، لوحت له، اتجه نحوها، لكنها رِفْعَت رأسها نحو التل قليلاً، فأنتفض جسدها وأشارت لوداد بالأبتعاد، انصاع لتلويحاتها ورجع الى مساره.

وجَلست هي القرفصاء، ثم مَدت عنقها جانباً كي تطالع الصورة المكملة للصوت الذي راودها منذ الأسابيع الماضية.

كانت «نديمة» تتَأوه على كتف التل الآخر، ولا يبين سوى رأسها الذي يرتفع وينخفض، كإنها غارقة وتتدافع مع صفحة الماء طلباً للنجدة، اقتربت «كيغانوش» أكثر حتى ابصرت رأس سائق اللاندكروز يكمل اهتزاز المشهد تحت «نديمة».

تَحرت «تيرا» عن انحاءٍ من جسدها، وداعبتها دون ان تغير جلستها، ودون ان تلتفت يمنة او يسره، انتبهت الى نفسها، بينما «نديمة» تنهض عن جسد الشاب، وتتمسح بخرقة عسكرية صفراء إنتزعتها من أديم التل، رمتها الى الشاب فنظف نفسه ايضاً، أسرعت «كيغانوش» بالأختباء ودَلفت نحو مسارٍ جديد خلف التل، وضعت كيسها فوق رأسها وبحثت عن نقطة وداد في الأفق فلم تبصرها.

مكتبة الفكر الجديد

بدت لها في نهاية مسارها نقطتين، إقتربت أكثر، لاحظت امرأتين تَجلسان متباعدتين كأنهما في وضع التَبرز، وقبل أن تتضح معالمهما، نهضتا بعجلة وهربتا، بعد ان قذفتا شيئاً ما، هالها ذلك المنظر..حتى وصلت الى مكانهما.

ظهرت نقطة سوداء في تلك الساعة، رِفْعَت له يدها والكيس، فاتجت النقطة نحو الربوة التي غادرتها المرأتان ووقفت عليها كيغانوش.

ـ شنو صار تيرا...

قال لها بينما عيناها متجمدتان صوب ماتَركته المرأتين، قضيبين صغيرين، بلونٍ خاكي، وبحجم الكَف، لهما نهاية مذنبة، رآها وداد تقترب من القضيبان على الأرض، وتنحني للأسفل، وتقرب انفها منهما، فيرتج رأسها بتأثير الرائحة الكريهه.

ينظر إليها وداد، مُدركاً إنها إستنتجت شيئاً لكنها ظلت تُحدق به، الى ان رد وداد بصياحه هذه الدعوة الصامته للمسها..

ـ هذا حقل ألغام.

أَمسك بيدها وتقاسما طريق العودة بتكهن ندوب وانخفاضات الأرض، واجتيازها بسلام وبعين مغمضة، وصلا الشارع بعد ساعتين تقريبا وهو أكثر من الزمن الذي تقضيه السيارة في الوصول إلى البصرة.

ـ «كاتون ملافي».

إلتفتت اليه، لكنه لم يلتفت إليها، حاولت ان توضح له بأن «كاتون ملافي» هو اسمه في لغتها بما إن «وداد» مشتق من المواء كما فهمت من طقوس العائلة، فصارت تقول له «كاتون ملافي» أو قطة تموء، كلما ناداها «تيرا».

مُلايَة كانت نائمة في المقعد الخلفي، مد وداد لسانه صوب كيغانوش

مكتبة الفكر الجديد

حينما رأى نديمة تتظاهر بإطباق جفنيها من التعب.

تخلت كيغانوش في الجمع القادمة عن مصاحبة وداد، كونه غير نافع وأمه لاتجعله يبتعد كثيراً بعد ان عبث بالطلقات وانفجرت عليه.وطارت أصابعه.

تَعلمت وعَلَمت الطرق بعلامات تدلها على تلك «الألغام» الطولية الشكل، قالت لمُلايَة بعد عدة شهور بأنها..

ـ سيرم آيس كو زيرا.

وإنها قد تسالمت مع هذه الأشياء اللذيذة، أو أنها اكتشفت بأن هذه الألغام فاسدة وغير مؤذية للجسد .

وداد الذي وضع في المكان على خرائطه حفلاً من النساء الراقدات بين دوائر الملح والشظايا والألغام...تقول بأنه أخبرها أَن في هذه المنطقة ألغاماً قديمة وضعت قبل الحرب مع ايران ومنذ «زمن عبد الكريم قاسم».وإن الغام الحرب مع إيران تقع في العمق الذي لايصلون اليه ويتركون «نديمة»تسرح عنده وتموء خلاله تحت كائناتها الشَبقة.

(26)

ليتني دَونت تلك الأعوام الهادئة، رُغم ان كل شئ فيها كان فارغاً، حتى معدتي، يمنعني «وداد» عن الكتابة، كما كان يمنع أخاه مدين، يبصق عليه كلما راه يقرأ لامتحان، او يكتب في دفتر أو على حائط، الكتابة في عقل وداد ليست سوى خطيئة بث كائنات غير مؤهلة للعيش في عالم مرير.

يمنعني عن الكتابة، ويتركني اتحسر على مرور الوقت، وتخيله كدفاتر

مكتبة الفكر الجديد

واوراق ومفكرات،وإستدل على مروره من خلال اللوحات الجدارية للرئيس التي رسمتها في تلك الأعوام، كان يزعجني تَبدل الألوان بمرور الأيام والرياح الغبارية الرطبة، كنت أركَب تلك الباصات الطويلة وأُمشط طريق البصرة ـ عشار ، كي أتفَحص الوان لوحاتي وإبتسامات الرئيس عليها، ويبقى رأسي مُسلطاً نحوها حتى اشعر بأنظار الناس تجتاحني منتقدةً رأسي الأشقر المتلفت الى الخلف...هم لديهم دوافعهم واعرفهم طبعاً فلربما يظن زوج او اخ غيور بأني أتفحص وجه قريبته في المقعد الخلفي..ليس فناناً بارعاً مثلي حتى يدقق في زاوية نظري ويكتشف بأني أنظر الى وجه الرئيس وهو يحتسي فنجان قهوة عربية في الجدارية التي رسمتها عام 1997 في «التحسينية».

الأ إني نادم على عدم تسجيل أيام الباصات الطويلة تلك، فَلم يبق منها غير اثار صفعات الرجال وتوقيعات وتواريخ أسفل الجداريات في شوارع البصرة، لذا أنا عاجز عن تذكر غير أرقام الأعوام1995و1997.

(27)

أنا مُتهم مثل نَورَست (كلبة العائلة) بتَلويث هذا الباطن الأَبيض لهذا الرجل الأسود، نَورَست كتبته، وأَنا عَشقته.

وداد أَعلن صَمته الطويل بعد أَن لفظ آخر ويلات طفولته، وأصبح رجلاً بِستة عشر أصبع، لايتكلم رغم إنه يجيد أَكثر من لغة، ولم يعد يذرعني بآلته العجيبة، ربما رأفةً بحافات الثانية و الستين التي بَلغتُها، أو زهداً بمفاتني الجافة.

مكتبة الفكر الجديد

في تلك الأَيام يحدث كثيراً أَن يسهو طويلاً، تسلم عشرة صور شَخصية لشيوخ عشائر وضباط واموات ذوي شأن، فتعطل رسمها لديه شهوراً.

اسأله فيرد:ماكوشي.

ماكوشي مختنقة، كأنها صوت الم يطلقه من بين أوتاره الداميه، مع إنها تجلب لي السعاده، لانها تكسر صمته، وتعيدني الى ايام ماضية كان يرسم فيها ويضحك ويتحدث عن امه مُلايَة وعن مدين، او يرسم خريطة ما فاسلكها وامشي، واعرف من خلالها الوقت واليوم والشهر والسنة.

مرت زكية واضطجعت كعادتها تحت جدارية الرئيس التي رسمها «فريد جنديل»، حاولت لفت انتباه وداد ونفض غبار الكآبة عن عينيه..(هاذي زكية) قلت له وسألته لماذا لايرسم لها خريطة، (سنعرف من خلالها اين تذهب واين كانت؟).

أسند ظهره على الجدار ووضع اللوحة في حجره، ودون ان يلتفت الى قال:زكية صاحبتك حامل.

لمحت انتفاخاً اسفل بطنها، شهقة البكاء أرادت ان تتزحلق من جوفي و[illegible]، أردت ان اقول لوداد هل تعرف ما لون ذلك القط السافل الذي [illegible]؟، لكن المياه غمرت عيني...

ثم [illegible] الصمت من جديد، صمت صمت صمت، حتى جاء ذلك [illegible]، دخل ثلاثة رجال يرتدون الدشاديش، لايبدو انهم من حي [illegible] من اول وهلة بأنهم من أهل حي المَثَلثْ، ركل احدهم وداد [illegible] رأسه بعلب الأصباغ، فوثب نحوه، لكن الرجلين الاخرين رفساه على بطنه وعلى رقبته، لم يكن ليصدر صوتاً من أصواته، ولو اصدر صوتاَ لأغشي علي ساعتها...

مكتبة الفكر الجديد

كنت أنظر في الأرضية وعلى الرفوف، كنت ابحث عن قطرات دمائه، يجب أَن تكون هناك دماء أُطالعها وهي تقفز من جسده، أراقبها وهي تهرب من كآبته ...اقل ما يدركه جهدي العاجز الضعيف.

إنقلب وداد على بطنه تلافياً لضرباتهم في نقاطه الحساسه، رفسه الرجل الضخم الملثم على خاصرته، أمسكت خاصرتي مثله ..رميت جسدي على جسده، لا أتذكر ماحدث بعدها رغم أني كنت واعياً، أزاول صد الركلات عن جسم وداد.

وقفت ودفعتهم بيدي الخائرتين، قالوا لي لاعلاقة لك بالموضوع، فاستعملت حيلة قديمة أكررها حينما تُعييني الحيل..قلت لهم..هذا يرسم صورة الرئيس والأعتداء عليه اعتداء على الرئيس الله يحفظه..فاطرق الرجلان، وتراجعا، ثم اختفيا من بين الجموع المحتشدة من الناس ..

تَدافع الناس وإضطربت صفوفهم، ثم انشقت عن عجوز سوداء، سكبت ماءً على يديها من قنينة قريبة، رشت الماء على وجهه، مررت كفها على جبينه ورقبته، فتَحت أزرار صدره ومسحتها، بينما تركت ملامح وجهها تتهدل من الغضب، شعرت بالخوف حينما زأرتْ في وجوه الناس، فأختفوا، بقينا نحن الثلاثة، أنا وهي و وداد، شعرت بالخوف مرة أخرى، مع صوت أَنَته الطويلة وعبارة يمة تمطها مُلايَة وتكسبها مزيداً من الوقت، فأحسست بأني دخلت روايتهم فعلاً، أحسست بأن هناك محرضاً حقيقياً آخر غيري، يدعو الى كتابة هؤلاء، و إن كلمات الحكاية تَسلقت على أطرافي المتعبة كأغصان متوحشة.

مدت يَدها نحو لافتة بيضاء فارغة، قرضتها بأسنانها، واستلت منها لفافة صغيرة، دورتها وحشتها في ثقب انفه، واستلت لفافة اخرى دورتها على يده ذات الأصبع الواحدة التي نزفت من أحد شقوقها، وفَلت ظفرها

مكتبة الفكر الجديد

مِن مَنبته، ساعَدتها في رفع رأسه، لكي تعصبه بشدة بقماشة خضراء أَحضرتْها معها، ثم غَطتها بلفافة أخرى من اللافتة.

اليوم الذي بعده كان الخميس كما سجلته في مفكرتي، أرسلت أم وداد مدين ليخبرني برغبتها بحضوري في بيتها في أقصى حي المَثلثْ، فعرفت سبب كل ماحدث، بعد ان طلبت مني ان احضر مع الرجال في جلسة الحكم العشائري الذي سيتقاضى فيه وداد بقية كَدماته، أقفلت المرسم، ولم يَفتني أن أسترق النظر من خلال ثقوب الباب لأرى عجوزاً أمرد، يتدلى شعر إبطيه الأبيض مع الهواء، وجهه ينكمش فتتصاغر دائرة الزرقة في عينيه، وتستطيل خطوط وجه، تتقاطع، يَتكئ على الحائط فارشاً كلتا كفيه، الى جانبه صبي صغير يفرش كفيه على الجدار ايضاً، مبدياً مؤخرته بنفس الإتجاه، عيناه أشد زرقة، العجوز والصبي الصغير الجميل عاريان، كإنهما ينتظران شَيئاً، تَجاذبا أطراف قصةٍ ما او خبر ما، تَنحنحتُ، إلتفتا بإتجاه ثقب الباب، فإكتشفا وجودي، دخلا معاً في موجة ضحك باردة، أدرت المفتاح وهَربت.

(28)

أَتخيله يَمشي بين دَرابين حي المَثلثْ، يَعد البِغال، يُوصل الى أُمه أَكياس الصابون في «سوق الأرامن»، تَفحص أمه الصابونات بدقة واحدةً بعد الأخرى، تُخبئ صابونة نَحَت عليها وَجه الرئيس، تتَباهى بالأخريات، تعرضهن على كيغانوش و نديمة...قوارب صغيرة، بيادق شطرنج، ثم تُغطي بسرعة أَعضاء تَناسلية غير مُتناسقة الأَحجام، مدهونة بالرغوة، أَراه يترك سوق الأرامل، يَتوجه شمال الحي، يصل إلى نهايات البيوت، يَقفز الأَنابيب الكبيرة، ويتسلق بَعضها، ينزل بِهدوء نحو النَهر يختبئ خلف نَعجة، يتَعرى،

مكتبة الفكر الجديد

يَفتح كيسه، ويرتَدي عَباءة سوداء مُتهرئة، وبعد أَن يَضع لحية «حَرملة بن كاهل»، على عارضيه، يَصرخ فاتحاً ذراعيه وسواده العاري، فيفزع «رعد الأَشقر»، يركض، فتَتماوج رُقعة الصُوف الواسعة، ويتبعثر القَطيع، وتَنطح ذوات القرون منه جدران الأَنابيب السَمينة النائمة منذ أعوام إنكشية بعيدة، تَحصر الخِراف نَفسها في نقطة تقاطع انبوبين، بينما تظل ذوات القرون تحاول قلع الانابيب وازاحتها عن طريق الهروب، و «وداد» ينشد ابيات حرملة بن كاهل الافتخارية، ويطارد الراعي رعد الأشقر، يقول له أنا وداد أيها المُخَنث، فيقع الراعي رعد الأشقر على الأَرض، فينتابه وداد بآلته العجيبة، كما ينتابني.

لم يظهر حسين خشان والد رعد في مضيف الفصل العشائري، وهذا ماتوقعته، فلم يكن ليتحمل وجوه الناس تتصفح وجهه المنحوت برغوة صابونة وداد، تصورت بأن كل وجوه الحاضرين هي صابونات مستعارة ومغشوشة، فلا احد يريد ان يبدو بوجهه الأصلي هنا، ليحضر حكم العشيرة في قضية لواط وداد برعد الأشقر، التي عاينها حسين خشان شخصياً، كنت انا الوجه الوحيد الذي يتصبب عرقاً خالصاً ورطباً، الأ اني سَكَت بعد خمس دقائق من افتتاح جلسة الشوارب الغليظة هذه، وهي مدة اقتراحي بتحويل القضية الى القانون، رجموني بصياحهم، وبحركات تمثيلية معتادة في مثل هذه الجلسات، يرتب لحواراتها مسبقاً، ويلطم الكبار افواه الصغار المتمادين المطالبين بقتل وداد وثقب مؤخرته بالرصاص، ليتمادوا أَكثر، يقذفون انفسهم باتجاه الطرف المعتدي الذي امثله انا وحدي، فيلجمهم الكبار بضربهم بالعصي وباطراف السلاح، يهدأ المضيف، ينظر الجميع الي، اسمع صراخ النساء من خلف الشبابيك، اقسام ووعود تتساقط من كل

مكتبة الفكر الجديد

الأتجاهات، ندمت على ارتيادي الجلسة لوحدي، شعرت بالأسى لوداد وامه، التي تمسكه عند الباب، بمعية حراسة محايدة و مشددة.

لا أستطيع ان أَقبل بكل الحلول، لا أعرف مارأي مُلايَة، تمنيت ساعتها ان اجتمع بها لدقيقة واحدة، مرة لأتذكر واستجمع قواي، التي احالتها هذه الضوضاء الى ركام، ومرة كي استمد من عطفها عطفاً، لأني كنت اشعر وقتها بان الخدر تصاعد الى قلبي، ورأسي ولم اعد قادراً على تذكر وداد كمعشوق، يبسط يديه على الجدار كل أسبوع وكل يوم في بعض الشتاءات.

لم يَسألني أحد عن رأيي بالحكم، رموا على وجهي ثوباً نسائياً، حَجب عني أصوات زفيرهم الساخن، ازلت الثوب من وجهي وقلبته، حسين خشان كان يبكي، بينما اثنان من شباب المضيف يجرونه من يديه باتجاهي.

عَرفت ان المطلوب إحضار وداد حالاً مرتدياً لذلك الثوب!، خرجت الى الباب حيث مُلايَة وابنها، سَحبته منها، وأدخلته الى غرفة داخل تلك الدار، وتحت اعين الجميع ..خلعت عنه قميصه المضمخ بالوان بشرة الرئيس وادخلت رأسه بالثوب، القماش كان بارداً وعليه رائحة عطر الخزن، ومع ان راسه خرج بصعوبه من فتحة الثوب، الأ إنه خرج بأبتسامة مفاجئة، ظَنها أهل النائبة بانها إستخفاف بهم فجابهوها بضحكات عريضة مُتوعدة، عرفت مداليلها حينما بَطحوه في وسط المضيف، وناموا فوق سواده، ومزقوا ثوبه الجميل، وكَبتوا صوت ألمه بلهاثهم وبهلاهل نساءهم خلف الأبواب.. التي حجبت أنين مُلايَة ايضاً.

قال لي في الأيام التي تَلت ذلك وربما كان هذا في عام 1998، بأنهم إنما خرجوا من حي المَثَلثْ لأنه من المناطق التي زحفت على خريطة الرواية، وانهم حاولوا العودة الى بيت الضريح في البصرة، لكنه تحول الى قيصرية سوق

مكتبة الفكر الجديد

لتصليح الطباخات والصوبات (المدفئات)، لكن الدَربونَة المدبوغة بأكف الحناء لازالت على حالها، وشوفان نَسيته النساء، كما إن المكان يُصبح مخابئ لمضاجعات العشاق في الليل، لذلك عَمد بعض أصحاب تلك المحلات الى تربية جراء الكلاب، لتغيير طبيعة وسمعة المكان، وليطرد نباحها الواعد الغرباء الليليين...فلم تَعد هنالك قطط...

إستأجروا بيتاً في أحد درابين العشار الضيقة التي نَحفظ خرائطها كلانا، كاملة في ذاكرتنا، إستوطنوا دَربونَة مغلقة، تَنتهي عند بابهم ايضاً، لكن مُلايَة واضبت على زيارة شوفان في البصرة القديمة، بل عرفته على «كيغانوش»و«نديمة» و«زكية»، فَصرن ممن يقصدونه معها، مدين يدرس في ثانوية قريبة، ويعطي دروساً خصوصية للغة الأنكليزية للطالبات، ووداد إحترف البورتريهات ووجه الرئيس وعلم الهيئة، وخلال تلك الأعوام ابتسم مرة واحدة، وسلم على زكية وهي نائمة تحت الجدارية ثلاث مرات، ولم يقترب من دائرتي الحميمة، كما يعبر عنها، والتي حددها في احد شخابيطة بقدر ثلاثة إنجات ونصف، أي المسافة التي تبعد ثلاثة إنجات ونصف من أي انسان وتعني دائرته الحَميمة وهي ملك له لايجوز لغيره الأقتراب منها، توسلت منه ان يجتاز دائرتي، و هَمَشت تحت كتابته بأن دائرتي الحميمة مثقوبة بإنجاته العشرة التي كانت تدخلني!.

مكتبة الفكر الجديد

(29)

أَمام مَقر الفرقة الحزبية في «الطُوَيَسَة»، رَسم وِداد جدارية للرئيس بتكليف مِن المسؤولين في الفرقة، وقد تكون من أكمل جدارياته، قبل حُلول ظلام تلك الليلة التي أرسلت الفرقة الحزبيه فيها بطلبي، ..إحضر حالاً مع ألوانك وفِرشاتك!، هكذا وَرد في قُصاصة الورقة المرسَلَة إلي.

قَوس فم مُقعر يحمل تفاصيل رَأس الرئيس الضاحك، المُعتمر لشماغ أَحمر ليبدو كثائر جنوبي، يَسقط شعاع عينيه في مياه شَط الأَمير الذي تطل عليه الجدارية وبناية الفرقة الحزبية، بينما تَستريح يداه خارج اللوحة في دَربونَة ما من درابين رَأس وداد، الجدارية كانت تَقترب مني وأَنا أَمشي بإتجاه بناية الفِرقة، تَجذبني بخطوطها وتَعزلني عن الشارع والسيارات التي كانت مزاميرها تطن في أذني دون أن ألتفت، او أن أغير مسار عيني وأصَحح خطواتي، ولم أَشعر بوقت الطريق حتى وَجدت نفسي قريباً جداً منها.

ولم الأحظ اني أصبحت لا اراها بوضوح وأَنا قريبٌ منها، بِسبب تلك الحافلات المركونة حول المبنى وعشرات من طلبة المدارس المتحلقين حول الجدارية، مَنظري مع صناديق الفرش والألوان أَلهم أَحد سائقي تلك الحافلات أن يَستعير مني قليل من الدهان والكازولين ليمسح العبارات التي كتبها على زجاج سيارته، تبعه البقية من السائقين، تجمعوا حولي باكوابهم الصغيرة وصرت ارى أَجزاء تلك العبارات تشطب من على الزجاج واستمتع بحفلة المسح تلك حتى فاجأتني أصوات الطلبة وهم يتقافزون حول جدارية الرئيس، كانوا يضربون وجهه بدفاترهم ومساطرهم وعلبهم الهندسية!، بعض مجاميعهم أرخَت على الجدران لافتاتها المعدة للإِستعراض

مكتبة الفكر الجديد

في بغداد بين يدي الرئيس، وراحت تلطم وجهه بالأخشاب، شعرت بالخوف من ذلك المنظر لكني مضيت في طريقي نحو الباب بعد أن شاهدت الرفاق ينظرون إليهم مبتسمين، استقبلني الأستاذ «نزار» مدرس الأحياء الذي جاء بصحبة الطلبة، ذكرته بما كنت أرسمه له من وسائل أيضاح فوجدت الفرصة مناسبة لأَصارحه بحقيقة قديمة، الهايدرا سُداسية الأذرع التي كنت أَرسمها بسبعة، ومَعدة الحمامة التي كنت أُضيف لها تعرجات عابثة، وتلك البرقية التي كنت أربطها في الساق.

أَخبرني بان الطلبة سيغادرون الى «مُعسكر التاجي» في بغداد بعد ساعة وإنه سيدخل معي غرفة أمين سر الفرقة ..«أبو وفاء»، مَسكت يده وضغطت عليها حتى أحسست بطهارتي الكاملة من شحنات الخوف والرهبة، ولم أَلبث حتى تلوثت بها من جديد وانا اجلس في غرفة الرفيق «أبو وفاء» وأَتابع كتل بطنه الشحميه وهي تَسيل من فتحات كرسيه البلاستيكي الأبيض، وسَأتذكر هذا المشهد حينما أَسمع من الناس إنهم وجدوا جثة «أبو وفاء» هذا بعد خمسة أعوام مرمية على جسر من جسور العشار، وقد ألبسوه تنورة نسوية ومن فَمه تَتدلى قطعة لحم قيل بانها قضيبه!...

ـ اني حاضر للرسم حتى الصبح..

ـ مانريد ترسم...

ـ .....

ـ نريد تمسح...

يريدونني للمسح إذن!، استدارات في تلك اللحظة المروحة الأرضية نحوي ولم تكمل تجفيف سوائل وجهي المتدفقة حتى استدارت نحو وجه الأستاذ نزار، لاستفهم انا دون ان انظر الى «أبو وفاء» عن ماهية المسح الذي

مكتبة الفكر الجديد

سأقوم به.

قيل أن «أبو وفاء» كان طبيباً بيطرياً يملك مَزرعته الخاصة لتربية العجول في «ناحية الدير»، إختفى فيها بعد سقوط الرئيس وجدارياته في 2003، باغته شُعور ما بالأمان فرجع لمزاولة مهنته وإستدعته احدى العشائر هناك لتَطبيب حيواناتها، فانفذوا في جسمه كل مايحمل من أبر في حقيبته وزرقوها له، ورمي على الجسر بعد ساعات وهو على ذلك الحال.

المَسحة في منطق «أبو وفاء» كانت ترتيشة بسيطة في جبين الرئيس، هناك ذُبابة مَيتة دَعكت نَفسها، علي أَن أمسح تلك الذبابة التي لوثت الجدارية وان أُصلِح ما أَفسده الطلاب فيها أثناء محاولاتهم لطرد تلك الذبابة، التي جعلت من أَنف الرئيس يبدو أقطشاً.

تركت نفسي تَسرح بين الشعارات المبثوثة على الجدران، تخيلت نفسي ألحس جبين الرئيس وأبصق الذبابة، ضحك الصبي الصغير المحبوس بين حلقي وأسناني، فكرت بأني أمنحه نكتة دائماً، أعصرها في دماغي وأُلقمها له، يغسلها هو ويُحررها من المخاط والماء!

-الماء..

قال الرفيق «أبو وفاء» وهو يصوب نحو وجهي قدح ماء.

نَهض الأُستاذ نزار وَودع الرفيق، فتَبعته نحو الباب وانتظرت مغادرة آخر حافلة لكي أَبدأ بالعمل، طَلبت من الرفاق أَن يُحضروا لي سلماً ارتقيه نحو الجبين، ترك لي وداد تَشكيلة أَلوان صعبة تحتاج وَقتاً لإستخلاص اللون الذي سألطش به الذبابة، الذَبابة، دوختني تلك الذبابة.كِدت أصرخ وأقع من السلم لولا إن ذلك الصبي الصغير عضني في طرف لساني، تَماسكت قوتي وعَمرت أنفي بالهواء..لاقولها في نفسي:وداد أيها النَغل لقد رسمت

مكتبة الفكر الجديد

ذبابة على وَجه الرئيس، لقد ورطت جميع أَسراب الذباب وستُدخلهم محاجر التعذيب بجناية لم يَرتكبوها .

كان مَشغولاً حينما عُدت الى المحل، الغضب والبكاء يُضببان الرؤية حول عيني، لَديه مجموعة من الرسامين الشباب يَخلط ويُعبئ لهم الألوان في أَوعيتهم، تَركته ينتهي مِنهم وفي ذهني أَن أُحضر له ويلاً يُنطقه، وبَكسر خَرسه الطويل، أَو شتائم ثقيلة من تلك التي يُحبها وتعود على سَماعها منذ طفولته وأَدرَجها في دفاتر خاصة، أَسماها «دفاتر شتائم البحر»، لكني أَعرف إن نظرته الحزينة التي تُهَشِم كل غَضباتي عليه، وتَنثر قطع وجهي العابس على الأَرض، لأبدو كما أكون دائماً معه، عاشقاً جباناً، يَجثو بين قَدميه، سيقول لي لاترفع صوتك، لا تصرخ في وجهي أَيها العجوز المأبون، لا تَبك، لا تَضع يدك على عينيك مثل الأطفال، إشرب هذا الكوب من الماء، أَو قنينة البيبسي تلك، لَديك نَقص في سوائل جِسمك، ستنخفض نِسبة السكر لديك!، إجلس وإغسل وَجهك، لن ننام سوية هذا اليوم، كفانا من هذه القذارة!.

باع كل الأَصباغ التي لدينا الى هؤلاء الرسامين، يقول بأن لديهم معرضاً خاصاً بلوحات صور الرئيس ايضاً، وإنه باع مايقرب من عشرة كيلوات لأثني عشر رساماً، سَيؤلفون معرضاً في غضون الأسبوع القادم، لم أَعلق على شئ، أنا اَتركه يتصرف كما يشاء ان كان ذلك يُطلق لسانه ويجعله أَكثر حيوية مع الأخرين..

ـ ليش رسمت ذبانة على وجه الريس...

أَجاب بانه لم يرسم، وإنَها ذبابة حقيقية إلتصقت بالأصباغ، أَلجأته الى القَسم، فَحلف بالله بأن الذبابة حقيقية وإنه لم يرسمها..

ـ بس آني شفته بعيني ..ألوان!، ذبانة مرسومة بدقة، منو رسمه؟

مكتبة الفكر الجديد

عاد وحَلف بشوفان وهو يضحك، أَنستني ضِحكته كل الأرتجافات التي كانت تَعصف بِجسمي، وَساعدته على تَرتيب القناني والأكياس، لم يتكلم بعدها حتى أقفلنا المحل عند الغروب، قال وهو يَضغط على القِفل..

ـ بعت الأصباغ الغذائية الي سويتها آني للرسامين..

كان يخبرني بطريقته الخاصة بأنه جَعلني أَستخدم ايضاً أَصباغه الغذائية في مَسح الذبابة عن وَجه الرئيس، هذه الأصباغ إشتقها بنفسه من أَرواح لَونية و تجارية كان يستخدمها الناس في المعامل المنزلية لصِناعة الحلويات والمَثلجات الملونة، إستثمر تَفاعلها الجيد مع الماء واللزوجة الناتجة عَنهما وجعَلها بَديلاً عن الألوان الأخرى باهضة الثمن، لم أطمئن لمغامرته تلك وظل الشَك يُخامر عَقلي وأَنا أَخطو معه خَطوات الليل حتى أَوصلته الى الجسر، هناك أَسندت ظَهري على السياج وغَرقت في الخيال، خَطرت لي مُغامرتان..أَما ان أَنزل تحت الجسر لأَمارس لذة المكوث تَحته أَو أَن أَعودُ ماشياً الى الجدارية أَمام مبنى الفرقة الحزبية في الطِويسة.

(30)

لَم تَسحبني الجدارية هذه المرة، لم أَرها أَصلاً في نِهاية الطريق، أَطفأت الأَضواء حولها، شاهدت شخصين تحتها، نَهض أحدهما وبَقي الآخر ..، إقتربت أَكثر وتأَكدت من إنه يَضطجع تحتها، بَدأت أرى تفاصيلها تدريجياً، قرب الباب كان ثلاثة من الرفاق يَقضون خفارتهم الليلية، أحدهم يَضع سلاحه بين ساقيه، تَنفست بعمق لما سَمعت ضِحكة الرابع وهو يُحضر لهم صينية شاي من داخل المبنى، زال عَني الرُعب ورأيت أن أَادنو من الجدارية

مكتبة الفكر الجديد

أَكثر، سَلمت عليهم، ومَررت من امامها.

إتضحت لي مَعالم ذلك الشخص النائم أسفل الصورة، تعمدت ان أُصدر صوتاً بحذائي لأوقظه، رفْعَت زَكية جسدها ونفضت اثوابها التي ترتديها منذ الشتاء الأول، الشتاء الذي استيقظت به على كونها زكية المخبولة، واوصدت به كل النوافذ التي يسلكها كل من البرد و تحرشات السكاري..الى محلزناتها السرية، اذ يلي طبقات الأثواب تلك بنطلون عسكري.ولاحظت وقتئذ بانها لازالت تحتفظ بمنديل نظيف في كفها، دلني عليه حركتها السحرية وهي تَتجنح بعباءتها لتتركها تهفهف مع الهواء، ليشتعل جنوني!، وانا أرى اسراباً من الذباب تفلت من وجه الرئيس بتأثير تلك الحركة، أثرت انتباه الرفاق ببلادة رأسي الصغير المحنط، فأوحيت لهم بأني أُنُش زكية عن صورة الرئيس، فنفعتني تلك الثواني في تفحص سطح الجدارية.

هناك أَعداد غفيرة من الذباب التصقت منذ ساعات النهار في وجه الرئيس، دنوت بوجهي من وجهه الكبير، كانت احجام الذبابات غير طبيعية، الذبابة السمينة منها تُعادل حجم ذبابتين تقريباً، نَتَرت بعض التجمعات بأصبعي، فسقطت أكوام منها على الأرض، تاركةً الأرجل الدقيقة معلقة وملتصقة بالطلاء، اظنها رشفت بخراطيمها تلك الألوان الغذائية الدبقة فنمت خلال تلك الساعات، مختصرة عمرها الأصلي الذي لايتجاوز اربعة ايام، ولم تسعفها اطرافها في الأنصياع لقوانين الجاذبية، فانفصلت عن ارجلها المرتبطة بالطلاء ووقعت .كأنها سكرت بألوان وداد التي استخدمتها في اصلاح الوجه ومسح جداريتهن الخاصة او ذبابة وداد الأفتراضية!.

وبعد أَن تابعت المرحلة الأخيرة من دورة حياة تلك الذبابات وشاهدت الهواء يدفع اجنحتهن نحو شط الأمير، التفت الى زكية لأرى بانها غافلتني

مكتبة الفكر الجديد

واختفت، ...لم يعد هنالك من مبرر لوجودي، تسللت الى ظلام وجدار، ثم الى باص صغير قاصدا جسرا بعيدا، لآتوارى تحته عن خارطة الّعالم.

(31)

التَوبة الفاشلة رقم كذا وألف التي عقدتها في تلك الأيام كانت من تَخطيطات قَلم الرصاص التي أَخطها على بياض الجداريات قبل ان أرسمها، لم أنجح في التخلص من تلك الحالة حتى اللحظة في الجداريات التي أرسمها في سقف حلقي، أنا لا أحتاج عادة الى تخطيط يساعدني في ضبط وجه الرئيس او الى اية شخابيط أولية خفيفة لأني لا أخطئ في ملامحه أصلاً، لكنني أستفيد من تلك الشخابيط السرية التي لن يراها أحد ولن يشعر بها أحد لأنها تشعرني باللذة. فمن يدري عن خارطة تشيللي او عن قطة سيامية او عن اوركيدة رمادية او عن هيكل قضيب وداد او عن ابو بريص مبتور الذيل، بخط رصاصي باهت لمدة دقيقتين أو ثلاث ..تحت وجه الرئيس!.في تلك الأيام رسمت جسدي تحت خطين يمثلان الجسر ، كنت محشوراً وأشغل كل مساحة الفراغ تحت الجسر والبنايات فوقي تبدو أصغر من أصابع قدمي، أطرافي متقلصة ووجهي سمين ومسطح يشبه وجوه المقاهي في لوحات «فيصل لعيبي».

لكن رذيلة تخطيطات الرصاص إستمرت معي في كل البياضات اللاحقة ، ولأني هربت وتوقفت عن الرسم بعد جريمة وداد فقد صرت أمارسها خفية تحت الجسور، كنت أَقشط القذارات عن الجدران والسقوف المنخفضة وارسم الرئيس وأفتتح به عوالم التَحت. ولايفوتني ان استمتع

بدقائق تخطيطات الرصاص بل كنت اهدف من وراء تلك الرسمات التمتع بمرحلة قلم الرصاص، ولو إني كنت أتمادى احياناً وأرسم حكايات كاملة، ثم استعجلها والطش وجه الرئيس كأنه بطلي الذي أَبَشر به مع إني دوخت به العالمين في الاعلى، اخطط وجوه مسطحة على طريقة «فيصل لعيبي» إثنا عشر رساماً يقفون صفاً صفاً ويحملون فرشاة في يد ودلو اصباغ يحوم حولها الذباب في اليد الأَخرى، وحينما أَنَقط الذباب حول دلائَهم الإثني عشر أهمُّ بمسحهم بسرعة وتبييض الجدار ورسم الرئيس عابساً.

ارتعب احياناً وأُلَملم جسدي تحت الدثار وكل صوت مريب اسمعه من الأعلى اتخيله صوت رفسة باب او صراخ امراة، واكمل من (عنديات) مشاهد اقتحام رجال الامن لبيوت الرسامين واقتيادهم لمديرية الامن واتخيل شكل وداد غافٍ في حضن ملاية..مسطح ايضاً.

أجمعهم واحداً واحداً ..الاخوين روضان وسعد سوادي من غرب المدينة، «ثائر رحَيّل» من الفاو، نجم ورغدان و فواز من البصرة القديمة، والخمسة الباقون من مؤخرة الخارطة او آخرها ، لا أدري.المهم إني التقطهم جيداً كما التقطهم رجال الامن، ولا أغلط في جمعهم كما لا يغلط زبانية التعذيب، لأننا جميعاً نجيد الحساب ونحسب بالتعاقب ... واحد اثنان ثلاثة...رغم ان طفولتي التي تعلمت فيها الحساب مشوهة ومزورة ايضا مثل «مدين» لكني لا أعد هياكل الأوادم بالمقلوب!.

مكتبة الفكر الجديد

(32)

فوق جسر المَغايز، تَمر الآف الأرجل السابلة كل يوم، ولايَخطر ببال أحد ما شَكل الكون تحت هذا الجسر؟، كان يَفتح فَمه في الليل ويَنبذني الى الخارطة الليلية، يعود ويَبتلعني في النهار وأَلبث في جَوفه ساعات طويلة، أَسجد وأَرسم بلساني في حلقي، وأُغَني، وأَكتب اشعاراً شَعبية، وأمارس العادة السرية بالمَقلوب!، أَجَرت بيتي لعائلة صغيرة، كنت أستلم أجره من ام رزاق كُل شهر، مع إني خلال تلك السنوات، كنت أَعود الى بيتي العالي احياناً أبيت فيه لأسابيع وأعود الى جوف الجسر ...استرق اسماع الناس عن امر الرسامين، واضغط على جمجمتي بكلتا راحتي، حينما تطرأ علي ذكرى وداد، احرص على ان انساه، وان لا اتخيله حياً او موجوداً، نجحت حيلي التي كنت اصصمها لنفسي، اكسيراً لنسيان وداد، فبدلاً من التفكير به كل دقيقة على مدار عام كامل، صرت أنساه كل دَقيقتين إنّكشيّتَين..ولا يدخل في الحِساب اللحظات التي أَرى فيها مُلايَة الكوازه او مدين في السوق او الشارع صدفةً، فعدم إستصحاب وِداد مع صورتها أمرٌ مستحيل .

أطل على جدارياتي وأَتَفحص أصباغها، أُدقق خطوطها واتأكد من نقاء بشرتها وخلوها من الحشرات الإفتراضية والمُنتحرة، أَتحسس حتى الهدوء من حولها..الهدوء، كنت اشعر في تلك الأيام بأن العالم هادئ جداً، يشبه حافلة طويلة فارغة في الساعة الثالثة فَجراً، حتى نوافذها تطل على شوارع فارغة، مشهد اخير ظهر في نافذتي، جعلني انزل صافعاً باب الحافلة بقوة، رأيت رجلاً عجوزاً..يَقف في نهاية طابور، عيناه تخالطهما زُرقة ونعاس، كان ينتظر دوره في الأختبار كمترجم للقوات البريطانية في البصرة، وهذا ما أنزلني من الحافلة، توجهت اليه وانا ارى احدى جدارياتي مهدمة، لم يُنبئني احد

مكتبة الفكر الجديد

بأن الرئيس قد (سَقط)، أنا الذي عثرت على نفسي بالصدفة وهي تتقدم بأوراقها للعمل مع الإنكليز، الإنكليز دفعوا سلسلة الطابور المتجمهر حول القصر، وَبَخونا فانصرفت تاركاً اجزاء من الطابور تنفرط تدريجياً...كنت أيها العجوز المُتعب..أنا.

(33)

في عام 2004 م دَخلت القَصر الذي تَشغله القُوات البريطانية كمقر لقيادتها، دَخلته لأول مرة، بِصحبة أَحد رجال الدين المعروفين في المدينة، كانت تَربطني بأبيه صحبة قديمة يوم كنت اسكن في محلة السيمر في البصرة القديمة ويوم كان الشيخ مُنافساً لِوداد في تَعليق الضفادع على أسلاك أعمدة الكهرباء، فَتَنبسط أطرافها لتبدو كعرائس مشنوقة من بعيد، وكنت أترجم له بعض الفصول الأنكليزية عن خواص التربة يوم كان طالباً في كلية الزراعة، الآن وقد تَعَمَم بوحي من وداد ايضاً، وماجت الأرض بضفادعها، أَرسل بطلبي مُتناسياً مئات الجداريات الضاحكة التي طوقت بها عالمه، أَخرجني من مَخبئي متأبطاً يدي وقادني الى القصر، يومها جَرحت وجهي بموس حلاقة صَدئ، مَررته على البُقع المسنة، وعلى الطيات والكتل الشحمية التي اكتشفت بأنها نابتة منذ سنوات دون علمي، على زردومي، شَعرت بغصة حزن في مريئي، إِبتلعتها وانا ألوم نفسي التي تابعت وجه الرئيس اكثر من متابعتها لوجهي.

مهمتي كانت سهلة، علي ان أترجم مطالب مدونة على شكل نقاط في ورقة أَو بيان الجماهير الختامي.كنت ألتقط منها، وانظر الى وجه الشيخ،

مكتبة الفكر الجديد

لأبدو وكأني أترجم له فورياً أمام القائد البريطاني الذي جلس على كرسي الرئيس المشلوع المدبب من كل جوانبه ومقابضهُ برؤوس السباع، نطالب بتعيين حاكم مدني للبصرة، لن ينتهي هذا العصيان الجماهيري، حتى تنفذ مطالبنا، ...لقد رسمت هذه السباع سيدي القائد عشرات المرات تتدلى منها جيوب سترة الرئيس او رباطه ...الخ، لم أتفوه بالجملة الأخيرة بالتأكيد، لا بلثغتي البريطانية التي أصبت بها وانأ أقلد مارغريت باتريك مذيعة البي بي سي منذ الستينيات، ولا بأي من لهجاتي العراقية.

لكني لَحظت يدى القائد تَضغطان مسند الكرسي الذي ينتهي برأس أَسد، وانا اقول ..يور سوجرز بوملنغ اور جلدرن .جنودكم يضربون أَطفالنا..ربما لأني تعمدت تقطيع عبارة (pummel) لتبدو لديه كأسم الأسد الأمريكي(puma)، وتبدو لدى الشيخ كـ(بوم) عله يتذكر ذلك البوم الهرم الذي عثر عليه وداد في بيتونتهم ففقأ عينيه وحنطه وعلقهُ لأسابيع في مدخل البيت، ثم ركبه في رأس قطة وتركها تموء ليلة كاملة، واخرجها الشيخ يوم كان طفلاً من الدَربونَة، دون ان ينجح في تخليصها من قناع جثة البوم، واجتمع الناس بعدها على مَشهد وطأ هذه القطة، وفَسروا مُواءها هذه المرة على إنه إنتشاء خاص بذلك الذكر الأسود السمين وبتلك التجربة التي كانت ممنوعة، لكنها ماتت من الجوع ورميت في المزبلة بعد يومين، بينما خَلّص وداد بومَه و رماه في قفص الضريح.

عُدت بتفاصيل جديدة، و بصهريج ماء آر أو مُعَقم صغير، وورقة البيان، ومروحة خوص يدوية، أَخرجت علبة مفكراتي، وفَتشت في كل الأعوام عن نِصف صفحة فارغة أكتب فيها ماحدث في ذلك اليوم، لكني لم أَظفر حتى بهامش واحد، خنقتني رائحة أبوال القطط في مجلدات وداد، أَغلقت

مكتبة الفكر الجديد

العلبة ونَسيت الكثير من تفاصيل ذلك اليوم، أنا بحاجة للمال لكي أشتري مفكرات جديدة.

المهم إن الشيخ ومعارفه كانوا يُرسلون بطلبي كثيراً، ويُكَرمونني ببعض المبالغ البسيطة.

وفي أحداث «المستشفى العسكري» العارمة، تظاهر الناس بصخب بالأسلحة الخفيفة والرمانات الصوتية، بسبب إساءة للمقدسات رواها احد الأطباء ممن يعملون في المستشفى الذي يشغله الجيكيون وقتها، دَخلت ذلك القَصر أكثر من مرة، مَع المعممين والأَفندية ومع شيوخ العشائر ووحدي احياناً، وفي إِحدى المرات إِتفق ان أَستمع لمشادة كلامية بين احد المترجمين ومجموعة من الشباب المتجمهرين خلف السواتر الكونكريتية وكأنهم التظاهرة، وعرفت بأنه يساومهم للعمل في مشروع إروائي في مدينة الهارثة تقوم به الوحدة الخدمية البريطانية، غادرهم وهم غاضبون، سمعت أحدهم يسب اسماء الله ويلعن المترجم الذي تَظاهر بعدم سماعه، إِقتربت منهم وسمعت حكايتهم، فعرفت إن المَترجم كان يشترط أن يُعطوه ورقة في الشهر من رواتبهم أي مئة دولار، لكي يوصل طلباتهم الى الوحدة، أقنَعتهم بأني مترجم ايضاً وسأوصل طلباتهم بلامقابل، وحققت لهم ذلك..، ووَعدتهم بأني سأكون هنا يوم الثلاثاء القادم بأنتظارهم لمتابعة الطلبات، وهكذا تعرفت على «احمد الردعان» المترجم الكويتي فأخبرني بأنهم بحاجة الى مترجمين فوريين ومرشدين ثقافيين، فتقدمت بطلب تعاقد مرفوع الى وزارة الدفاع البريطانية للعمل المكتبي الذي سأتقاضى عنه خمسمائة دولار امريكي في البداية، بعد أن شرحت للردعان بأَني رجل مسن ولا انفع في الطلعات العسكرية التي يتقاضى عنها الف دولار شهرياً، ودماغي ايضاً لم يعد قادراً

مكتبة الفكر الجديد

على مضغ المغريات، وما أسرع أن باشرت العمل داخل القصر وسمعت بنبأ طرد ذلك المترجم المساوم، وأوصلت بنفسي جثمان أحمد الردعان الى معبر «سفوان» الحدودي بعد ثلاثة أشهر من تعاقدي، وسَلمته الى زوجته مع أوراق خاصة وبيان وفاته مع اربعة من الجنود البريطانيين جراء إنفجار «عبوة كهربائية» على «جسر الكْزَيزَة» ....هكذا أسماها البيان.

تَرجمت ما يقرب من ثلاثة الآف وثيقة وعقد وإجازة وبحث، مشاريع عمرانية وزراعية، تسجيلات صوتية ومرئية، ونشرات خبرية، كتيبات دينية محلية، منشورات وملصقات للجماعات والأحزاب مصورة او منسوخة من جدران الشوارع والأبنية، لافتات تظاهرات ويافطات وشعارات، وعبارات غريبة تسلم الي مكتوبة بلغات غريبة، كنت أقربها الى أوجه الأحتمالأت، مُستفيداً من دورة علم الجرافولوجي الذي اتقنه مع علوم وداد الأخرى، فلم تنفعني دورة م.روي التي دخلتها في القصر في تحليل خط الكتابة الأعتيادي... .بل لم ينفعني أي شئ في ذلك المكان.

(34)

حاسوب مَحمول ونافذة، أجزل العَطايا في هذا المكان...حاسوب محمول ونافذة، نافذة تُشاطئ أفق من الماء لاينتهي، الى أَن تَقطعه أَعواد النخيل البعيدة في الأيام التي تكون فيها السماء صافية، على إن هذا المشهد مَللته فيما بَعد ايضاً، وصار يبكيني، يبكيني! وهل بكيت طيلة عمري؟، أَقصد تلك الغصة التي تذيبني من الداخل، فأعود أَجوف، ومَضغوطاً بغاز الخيال، فأنتفهم واحداً واحداً، كما تنتف نَورَست شخوصها الملتصقة بجدار

مكتبة الفكر الجديد

الدَربونَة، وخصوصاً اولئك الذين لم ادونهم في مفكراتي، وجوه لعقتها ديدان الأرض منذ عقود، بعد ان لعقت اذني وانفي ومؤخرتي، هؤلاء المعشوقون القدامى، هؤلاء باقون، لازالوا يعبثون في جوفي، والطريقة الوحيدة لنسيانهم هي أن أَشخبطهم في مفكراتي، او أن أرسمهم، فأَطويهم مع من طويتهم في الأوراق والألواح، فيتوقفوا عن الأزيز!، حاولت منذ عام 1995 ان اضعهم في جداريات الرئيس، كحيلة لتفريغهم...

وبما إن الناس إعتادوا على منظر وجه الرئيس وجلساته وأَزياءه، فهم يغفلون عادة عن التركيز، رمقة او لمحة جانبية، لتؤشر المقاييس في ادمغتهم بانها صورة الرئيس، وبانهم مازالوا هنا، وانه لازال يحكمهم، وان المدة التي حددتها اساطير العرافات لزواله لم تنتهِ بعد، عليهم ان يبتلعوا يوماً جديداً، فيسلكون الأودية بحذر، مطأطين جماجمهم، واذا لمحوا صورة اخرى، فلا يستحق الأمر ايضاً شيئاً من التَمعن، انه الرئيس ايضاً، أَما الذين يجيلون النظر فهم زملائي من أَهل الصنعة، وهؤلاء ايضاً إِدخرت لهم من حيلتي حيلة...

فَلم يلاحظ احد ذلك منذ ان رسمت تلك الجدارية التي تقابل مركز شرطة «الرباط»، بأني وضعت فيها ملامح (لويلو) وعيناه، وابهامه الذي لم اره اصلاً، لكني تحسست ضخامته وهو يدسه، عندما كنت أَمر من احد الشوارع الفرعية قرب «مكينة السوس» التي شيدها البريطانيون في العشرينيات، اذ رأيته يتململ من طابور طويل على احد بيوت المومسات وهو يداعب حديدته، نظر الي وركض باتجاهي وسحبني الى داخل البيت، يرفعني بإبهامه، ولازلت اتذكر رائحة الجدران الرطبة، و خطوط الكحل السائل على عيون العاهرات وهن يتأملن الجدارية واهتزازاتها فوقي، رغم

مكتبة الفكر الجديد

إنها حدثت عام 1956 او 1954.

أما الجدارية المُطِلة على «نهر الوَمبي» التي رسمتها عام 1996 فتعود قصتها إلى قاطع تذاكر في قطار المعقل، كنت طفلاً ايضاً، ولا أتذكر الأن من شكله الأ ما تسعفني به جدارية الرئيس على النهر التي هدمت بعد ساعات من سقوط بغداد.

أما الجدارية الثالثة، فقد نَفخت فيها شُكوكو، ولا أعني شكوكو بالأبيض والأسود في الأفلام المصرية القديمة، بل إنه اسود تماماً، مثل وداد ومدين، وهو معني ايضاً بالأفلام ..كان يقف امام «سينما الصباح» في العشار، في الستينيات، مُعلقاً برقبته جدارية لَونها بالصور والعبارات، القطار...(فلم القطار، «برت لانكستر» و الحلوة..اللي تشك الحلك:«إيفون دي كالو».. أموت عليها.. من ينتصر الظلام أم النور ان الباطل كان زهوقا، «فيفان لي»، «ذهب مع الريح» ...ويبقى وجه ربك ذو الجلال والأكرام، كلارك كيبل ...شنو «يوسف وهبه»، لو شنو «انور وجدي»، هكذا كان يصيح في النهار..).

أما في الليل فكان يقف عند سينما الحمراء، ويغني مقلداً فريد الأطرش ومُعلناً عن فيلمه الجديد:انا غنيت بالهامك لحن الخلود..فيلم لحن الخلود بطولة ماجدة..ومنو..فنك منو:الحمامة البيضة فاتن!

يعرفه الناس بـ(تومان العبد)، انا اسميه شكوكو وهو يسميني «وايت الفانت»، وللآن لا أعرف من اين سَمع «تومان» العبد بعبارة «الفيل الأبيض»، التي تعني شيئاً لاداعي له في الإنكليزية!!

كان يدخل الى صالة العرض مختطفاً مصباح العامل، ويبحث عني حينما يشتد الصياح والتصفيق في الصالة الضاجة بالشباب الشيوعي الذين

مكتبة الفكر الجديد

يشجعون بطلهم الثوري على الشاشة، وأَضيع أَنا وسط الهتافات، ويعثر علي ببقعة ضوءه الخافتة، ويُحذرني من الجلوس في الكراسي البعيدة عن الهتافات..اشياء غريبة تحدث للشباب الحلوين هناك، يقول وهو يخرجني، ونتفق على اللقاء تحت الجسر، فأوافيه في المساء على جسر نهر الأمير، فنتكلم عن حياته، وأسفاره، ومغامراته مع عمال البحر النيباليون والبنجلاديشيون والفيتناميون، ويعزف لي قليلاً بانفه، كما اشتهر عنه، ويمنعني من ان أغطي وجهي مؤكداً، ان هذا الرذاذ هو بعوض صغير، وليس بمخاط، وكم ندمت من عدم تذوقي لألحانه...كان صوتاً ولعنة في آنٍ واحد، لعنة منعتي من سماع أي صوت طروب اخر، فأنا منذ ذلك الحين لا اجرؤ على سماع الألحان، و ابدو كذلك المَخلوق الفضائي في افلام غزو الأرض الذي ينفجر راسه بسائل اخضر لمجرد سماعه لأي نغمة حزينة، اما نغمات النوح الريفي فهي كفيلة عادة بهروبي هرولة من أي مكان تبث منه.

لم لا، أُثير يذكرني بهما معاً، وداد و«تومان»..!

كان عفيفاً رغم مايقال عنه، يرفع قطع الزجاج من الطرقات وهو يدور مغرداً بأنفه على الأسواق في البصرة والعشار، اخر مرة رأيته وليت منه هارباً، كان مشهداً اعتيادياً في أن أراه يتبرز على ضفة النهر الصغير، وتتدحرج كرات الغائط نحو النهر، مع بخار خفيف لحظة اصطدامها في صفحته، وان أراه وقد ثبت لفافة السكائر في أصابع رجليه، مبدياً زهوه بمرحاض الهواء الطلق أمام المارة، فقلت له باني لا أريد ان ألتقيه مرة أخرى، وحاولت أن اقترب منه هذه المرة..وكنت على وشك تفحص الأمر بنفسي حول ما يقال من انه عبد مخصي ولازال مملوكاً لصاحب السينما! ...وحينما إنحنيت للأسفل، لم يعد ذلك المشهد معتاداً، صرخ «تومان» مثيراً أنظار الناس وباعة المحلات،

مكتبة الفكر الجديد

كانت لفافته قد بلغت نهاية اشتعالتها بين أصابعه. فهربت مرعوباً.

عُدت الى دخول قاعات السينما حينما اصبحت في الأربعينيات من عمري، كان «تومان» قد إختفى ولم يعد يتذكره الكثيرون، وأصبحت القاعات هادئة ومُملة، ومظلمة تماماً تشبه غرفة الكاميرات الشمسية، كنت اتخيل نفسي داخل تلك العلبة الخشبية المعتمة وأنا في الصالة، الموضوع ألهمني طريقة جديدة لرسم البورتريهات والجداريات فيما بعد.

أما أبطال الشاشات المتأهبون دائماً لكبس الحلمات مثل الأزرار، فلم تعد تفتنهم أصوات التصفير والأضراس التي تطحن ببلادة فستق حبزبوز... بهذا سمى عَربته ذلك الرجل، الذي يمتلك ظفيرة طويلة كما يقال عنه، مخبأة تحت كوفيته، لأنه من الطائفة الكسزنزائية، كان قد صَبغ عربته الجاسئة أمام سينما الوطني بعناوين الأفلام ..مُقلداً «تومان».

«تومان» الذي بَقي في بالي حتى عام 1997 حينما ضغطت وجهه في رأس الرئيس وهو ينظر الى شط الحكيمية بعد ان صار آسناً، بينما كانت ترى عُملة العانة النقدية القديمة في قاعهِ واضحة، كما قال أبي.

مكتبة الفكر الجديد

(35)

موقع صحيفة ألكترونية

إراكِيسك، صَحيفة الكترونية، ملتقى الجالية العراقية في الدَنمارك، صفحة (إبحث عن أقاربك وأصدقائك)، 17 آيار 2006، الجانب الأيسر: الصفحة الرئيسية، أخبار العراق، أخبار مالمو، أغاني قديمة، ..الخ، الجانب الأيمن: مجند دنماركي يصمم لعبة فيديو غريبة اسمها (الذباب الأفتراضي) أثناء وجوده في العراق، تدمير معبد الصابئة المندائيين في البصرة، ماذا تعرف عن بواب سفارة العراق في الدنمارك؟، صورة النخلة المنكوسة على رأسها في الناصرية، صورة لتمثال تسواهن الميسانية، مطعم بييزا للبيع او الأيجار في كوبنهاكن، ..الخ.

متن الصفحة: الأخوة الشرفاء، اليكم، والى كل من يقرأ هذا النداء:

أَبحث عن صديق لي من أهالي البصرة، يسكنون في البصرة القديمة وتحديداً في دَربونَة العبيد او مرقد (الشيخ شوفان إلي حَبل الأفندي) المعروف..

الأب: حَياوي العبد تولد 1947 واستشهد عام 1988.

الأم: مُلايَة الكوازة تولد 1937..ولا ادري ان كانت لازالت حية او لا.

الأبن الأصغر: مدين حَياوي تولد 1980.

أما صديقي فهو الأبن الأكبر وداد حَياوي تولد 1975، انقطعت أخباره عني منذ أيام الدراسة المتوسطة، بعد ان هربت عائلتنا وخاضت رحلة طويلة، انا اقيم هنا منذ عشر سنوات، يكولون ان مدين أخوه جاء الى الدنمارك او ربما شخص يحمل الإسم نفسه، جاء مع مجموعة المترجمين الي عملوا مع القوات الدنماركية ..أعطوهم لجوء. الرجاء الرجاء ممن يعرف اية

مكتبة الفكر الجديد

معلومة عن مدين او عائلته او عن أي شخص إسمه (مدين) في الدنمارك.. ان يخبرني مع خالص التقدير والإحترام.

سلوان جباره ـ مدينة آرهوس المحروسة

8-2006-3

المداخلات:.....

كيغانوش ـ مالمو ـ 2-9-2008

باريف سيز.. سيرم كيف ياكووو ايتش كا انيتش كا باريف ريك يرنتس،مطلوبة نذر الى سيد شوفان اكنس ضريحة كل أسبوع سلمولي على وداد كاتون ملافي ..يرنتس.

الدكتور كمال روضان ـ البصرة ـ 4- 10- 2006

ذلك المترجم الذي ظن بأن مجموع الرفات ثلاثة عشر، حينما انتشل الدنماركيون هياكل المقبرة الجماعية وفيها رفات إخوتي، مدين صديقك..أحرج نفسه، مُدعيا بأن الهياكل ثلاثة عشر وليس إثني عشر، لأنه عَدها بالمقلوب..عَدَّ مجموع مايبقى في الحفرة بطريقة تراكمية فألتبس عليه الحِساب، وزاد عنده رجل في الورقة لا في الحفرة، وأنا متأكد مثل الجميع بأن الرسامين في قضية الذباب كانوا إثني عشر...سَلم لي عليه اذا شفته.

(36)

تُوكل الي المَهام الصَغيرة، كان يَحسدني الكثير من المترجمين لأَن هناك من ينظر الي في قصر القيادة البريطانية ككبير مُترجمين، (شايف وعايف)، وكل ماعندي من أَلسن الناس كان من وداد!.

يَتركونني وَحدي في كافتيريا صغيرة ومختصرة، يغريهم ما اطبعه في النظر

مكتبة الفكر الجديد

الى شاشتي، كنت اتحايل على برنامج التجسس على الحواسيب، لا ينفذ ما اكتبه الى أي مكان، وحينما يعطي ذلك البرنامج تقريره اليومي عن عدد الكلمات التي كتبت في كل حاسوب..كان يفيد بأن حاسوبي كتبت فيه كلمة واحدة فقط، لأنني كنت لا افصل بين الحروف.حينما افرغ من الترجمات كنت أُسجل كل شئ حدث معي، كي لا أَفتح متنفساً لكآبتي المؤلمة، أُسجل ان عامل غسل المراحيض قتل اليوم، ونجا المترجم الذي يرافقه، أُسجل ..إن «علاء البغدادي» قتل هذا الصباح وهو عائد من قاعدة المطار، وإن زوجة «كريم عبد الستار» أُختطفت اليوم ...

أُسجل ،لايجب ان أَخرج من القصر الى خارطة العالم سَيقتلونني ويرمونني على الرصيف مثل عقب سيكارة، ولن يكلفوا أنفسهم بوضع ورقة صغيرة علي يكتبون فيها بأني مترجم خائن وعميل..

أُسجل..جاءني «كريم» قبل أيام وهو يحمل كيساً من النايلون، قال لي.. خَبأه عندك، إنهم يثقون بك، لن يسألك احد عن هذا الكيس، كنت اعرف ان كريم مترجم سيئ، حينما جاء الى هنا لم يكن يعرف سوى الووتر والبوك والبيبر والريبوت، لكنه كان يعقد صفقات تجارية صغيرة مع بعض الجنود البريطانيين، كان يبيع لهم ساعات رخيصة، منمنمة بشذرات فضية مزيفة، سكائر سومر، سنادين شجيرات نخل صغيرة..

حينما عاد الي كريم في الظهيرة، اشترطت عليه ممازحاً ان يخبرني عن ما في الكيس كي اعطيه له، قال لي..افتحه، افتحه، وقبل ان اتحرك بيدي الضعيفتين من صلابة الأزرار ومرارة الأيام..بسط لي فوهه الكيس بحركة خفيفة، كأنه سمسار متملق، كانت كتلة من فتات المرمر والأحجار، أخرج لي منها عينة، فتتها وقلبتها بأصابعي، لاحظت إن بعض قطع المرمر المتشظية

مكتبة الفكر الجديد

كبيرة ومصبوغة، حبست في أطراف لساني صرخة ...اردت ان اقول له، انها ركام جدارية المرمر التي رسمتها بنفسي!.

أعضاء الرئيس مُهشمة، وبريق الواني لايزال يلتمع رغم آثار الحرق والتَقشر، «دومينيك» يقول ان هذه النفايات تجلب للجنود ثروة في مُدنهم، كما إن تلك الساعات تعد كنزاً رمزياً لذكريات الحرب التاريخية التي حدثت هنا.

ـ (نحن نتقايض النفايات إذن!)

ـ (لا تنسى ان تجلب الكثير من تلك النفايات لو قبلت طلبات المترجمين ومنحتم لجوءاً سياسياً في بريطانيا).

(37)

ـ عيونك زرقاء..

ـ عيوني خضراء..

ـ مالون ذاك القلم؟

ـ أَزرق..

ـ ومالون عيونك؟

ـ زرقاء.

ـ كانت خضراء قبل ثانيتين.

ـ الناس هنا لايفرقون بين الأخضر والأزرق.

ـ الأمر سهل لو كنت في بريطانيا.

مكتبة الفكر الجديد

«دومينيك» يَسألني دائماً، وينظر الي كثيراً، هو المسؤول عن وحدة الصيانة، يعمل تَحت ناظريه عشرة مجندين، يترك زوبعاته التي يرسمها وسطهم، ويحلق حولي كل ليلة، كان يستنطقني بفضول غريب، اجيبه عن كل الخطوط والرسوم التي يسأل عنها، واخاف ان يفاجئني يوما ما ويكتشف امتهاني لفنوني السابقة، علمته كيف يكتب عمره بالعربيه..45 عام، لَمحت له بعدها بأَن عندي عمل مهم هذه الليلة..وأن عيوني زرقاء.

وَصلتني صورة تلك الصورة الضوئية في منطقة الحيانية، طبعتها وأَهديتها لـ«دومينيك»، قلت له بانه كائن غريب، البعد بين عينيه مبالغ فيه، والمسافة بين ارنبة انفه وفمه غاية في الصِغر...لم اكن أَعْرف بعد بأنها ذات الصورة التي رسمها مدين لي وجَمع ملامحها من الصور الشمسية التي إشتراها في يوم عابث من رجل بصوتين وإسمين..ابو ثورة/ ابو رحمن.

ـ(لا أرى بأنه كائن غريب).

ـ(هذه حيلة وانطلت عليك...كما انطلت على السُكان والمارة).

ـ(من هو هذا الرجل؟).

ـ(ليس رجلاً!، لا وجود لهكذا صنف من البشر، لا وجود لوجه بهذه الأبعاد..)

ـ(ماذا ستكتب عنه في تقريرك؟).

ـ(...لاشئ، سأسأل عنه معارفي ..كنت اعمل في ذلك الحي).

ـ(كل معلومة ستزودني بها عن هذا الكائن...ستزيد من قيمة هذه الصورة).

أطمعته هذه الهدية، ولم تلقم فضول عينيه، هجم عليَ بحروفٍ مقطعة،

مكتبة الفكر الجديد

كنت أكملها له، كما كنت اكمل ل«فريد جنديل» مصارحاته الأخيرة، غير اني اكمل بالأنكليزية هذه المرة.يريد مني «دومينيك» ان اترجم له حواراً خاصاً.

أَقفل عليَ باب غرفته في ذلك الثلاثاء، الثلاثاء الأخير الذي سأقضيه في هذا القصر، في الداخل شاهدت (صورتي/ الوجه غير مضبوط الأبعاد) مُعلقة على الحائط مع برواز أَنيق، بِضعة نسخ رمادية موزعة على منضدته، موقعه مع اهداءات.

عاد بصحبة رجلين، لم أَعد اتذكر سحنتهما، إنما أتذكر صوتيهما ولغتيهما، قَفل الباب، سبقه الرجلان الى السرير، حرك أحدهم يده بإتجاهي، يستفهم عن سبب وجودي، عبر لهم «دومينيك» بأصابعه ولسانه...ترجمة، انا هنا للترجمة.

تَعرى الرجلان، بسط «دومينيك» جسده مجرداً في الوسط، كان ينظر إلي، كانه يأمرني ببدأ العمل، لكني تأخرت كثيراً، تركتهم يمتزجون ببعضهم، بعدها ترجمت تأوهات الرجل الأيراني، ونَقلت للرجلين كلمات «دومينيك» الخافتة، لم يتكلم السعودي ...حَرضته بصرخات الرجل الأيراني..تأكدت من ذوبانهم معاً، وكونهم لاينظرون الي، يسمعون ترجمتي فقط، ويمارسون اهتزازاتهم اللزجة..

لحظة بعد لحظة، كانوا يكسرون خجل اجسادهم ويمررون أُنوفهم وافواههم وأعضاءهم على أُنوفهم وافواههم وأعضاءهم، وأنا ..أنقل بأمانة افرازاتهم الجنسية اللفظية، الى كل لغاتهم بالتعاقب، ««دومينيك»» ينظر إلي، يهمس لي : (ماذا يقولون؟)، أقول له ..لاشيء، إنها أصوات شَبق عَربية لايمكن ترجمتها، هل أُقلِدها لك بصوتي!. لحظات وأُلغي دوري تماماً،

مكتبة الفكر الجديد

إكتشفوا بأن الكلمات لا دور لها وأكتفوا بأصوات كالفحيح، وفي المرات اللاحقة كُنت أتولى ترجمة البدايات فقط.

سَجلت هذا اليوم في مفكرتي الألكترونية، ...فن ترجمة حفلات الجنس الجماعية.

(38)

قُبلة طويلة لَزجة طَبعتها على ورقة أشعة مرض السِل، خبأتها مَع صُندوق مفكراتي، أَخرجتها في «بيرك شير»، لم ينظروا إليها اصلاً، كنت اول من ختموا أوراقي، لأن اللجنة البريطانية أوقفتني في أول طابور المترجمين وعائلاتهم.

لم أكن أتابع أمر مَنحنا اللجوء السياسي في مملكة بريطانيا العظمى، كنت اسمع الطراطيش هنا وهناك، حتى وجدت نفسي في ذلك الطابور، ككهل مريض حريٌ بالأهتمام والتقديم، حتى انهم لم يدخلوني تلك الدورة الخاصة بتأهيل المترجمين وعائلاتهم وضخهم في الحياة البريطانية، أخذت مبلغ الإعاشة، وحزمت ما اشتريته من البصرة من بطانيات وملابس داخلية شتوية، سمعت من «دومينيك» بأني لن اعثر عليها في غلاسكو.

«غلاسكو» إذن!!...، لم أسأل عن المدينة كثيراً، كنت أسأل الجميع..كيف أصل من غلاسكو الى كوبنهاكن؟، أحتاج ياعباد الله المدللين عشر دقائق ..أقول فيها لذلك الأسود الآبق في الدنمارك..أنا هنا، لقد عثرت عليك قبل أن تعثر عليَّ.

في البداية كانت تلك العائلات تصحبني معها الى التسجيل في مركز الشرطة واستحصال سجل السكن من المركز الصحي، أو الى اطباء الأسنان..

مكتبة الفكر الجديد

وهي اجراءات روتينية يجب ان يقوم بها الوافدون الى غلاسكو المحروسة.

لكني ولأيام عدة-ربما استغرقت الشهر الأول من مُكوثي في اسكتلنده ـ كنت أسرق طفلة صغيرة محجبة، أطوف بها أو تطوف بي شوارع غلاسكو وجسورها، أسرقها من والديها، الذين يقطنان معي في نفس الطابق من ذلك البرج السكني، كنت أتسلل بها الى مدينة ماكنتوش، اجعلها تردد معي اسماء الشوارع والأنهار، تحفظ معي كل اليافطات والأرقام.

إكتَملت عندي خارطة غلاسكو، حذفت منها مواقع الجسور، لئلا تغريني مرة اخرى، مع اني خزنتها في ذاكرة الطفلة المحجبة.استطيع ان انتفس في غلاسكو الآن.

يَسمع سكان البُرج بمهنتي العَتيدة، وصار بابي يُطرق كل صباح، اين الطريق الى حُسينية الرحمن، سَبع وأَربعون خطوة ..تَنعطف يساراً حتى «جوفان هيل»، تمشي حتى منتصف شارع «إليسون»..فَتُعاين تلك اليافطة.

أما بيت الكباب التركي الأُسكتلندي في شارع «اوسوالو»، تستقل الحافلة وتوصلك اليه بخمسة وأربعون بنساً فقط، أحتاج الى إصلاح كمبيوتري الشخصي يا عمو، آدم نواره قرب جسر «رايل واي»، سَتقرأ يافطة «ميركري كمبيوترز».

حتى إن شخصاً سودانياً يُدعى «البخيت محمد» يُركب صُحون القَنوات الفضائية العَربية، ترك لي رقم تلفونه، وتحته عبارة..70 جنيه استرليني فقط كلفة تركيب الدشوش.

أتقنت أيضاً أيجاد العدد الذي اضربه في عدد خطواتي لأحصل على الأبعاد بالأميال، سمعت ان مطار غلاسكو الدولي يبعد سبعة اميال عن برجنا الكئيب، لم يشغلني ان احول الأميال الى خطوات، بل شغلني ان أُبقي

مكتبة الفكر الجديد

معي سبعون جنيهاً حتى نهاية الشهر، كي أطير بها من المطار الى كوبنهاكن ومنها الى جزيرة يولاند حيث يقطن آخر عبيد دَربونَة الشعر والمواء.

مبكراً، نسفت المدينة في مخيلتي، بعد أن وصلْت جميع خطوطها وخرائطها، بدأت اشعر بأنها تضيق علي، فأضْفت الى امراض شيخوختي..«عذابات الملل من غلاسكو»، لم يعد يسليني شئ سوى قراءة مفكراتي على ضفاف بحيرة «لوخ نيس»، كنت اركب حافلات ناشيونل اكسبرس، وأنام في معظم وقت الطريق ..واستيقظ على صوت تدحرج صندوق مفكراتي على ارضية الحافلة.

يؤنسني أن أَستمع مراراً الى قصة وحش تلك البحيرة، قصة يدفعها الأثير الى مقعدي في الحافلة، في المرة الأولى كانت راهبة تَجلس خلفي، تقول لمرافقها إن القديس «كولومبو» قبل مئات السنين هو أول من شاهد «نيسي»، ونيسي إسم وحش البحيرة، ابصره يخرج راسه من ماء البحيرة وينهش احد افراد القبائل من السكان الأصليين، وببركات دعاء كولومبو وابتهاله..لفظ نيسي الرجل من فمه، وغاص بعنقه الطويلة الى الماء.

عامل المول في شارع الملكة إليزابيث، الذي إشتريت منه ادوات تحبير الخرائط، جلس بجانبي في احدى تلك الحافلات..ليقول بان اشجار الصنوبر الأسكتلندية تطلق من جذورها المتعفنة غازات كثيفة، فيضج الفضاء فوق البحيرة بأعمدة الدخان..فيعتقد الأغبياء بانها مخلوق غريب.

كنت اجلس وحدي لساعات أُقَلب اوراق مفكراتي واعلق عليها شفوياً بكلمات مرتجفة من تاثير وحش الدقائق الأنكشية الطويلة التي عشتها، مع هذا فلا أريد ان اصدق بأن عمري واحد وسبعون عاماً.

قبل ان تَخفت حواسي تماماً، حزمت امتعتي ورزمت اوراقي وفحوصاتي

مكتبة الفكر الجديد

وجوازي العراقي، وقطعت الأميال السبعة بالحافلة..كان علي ان اسجل ذلك اليوم بكل تفاصيله لكن قواي خارت منذ زمن ولم اعد اصلح الأ للقراءة القليلة والنوم.لكن تلك الدقائق العشر التي قضيتها في مطار غلاسكو كانت تستحق التوثيق كمثيلاتها.

دَفعت بجوازي الى عاملة المطار، قلبته، تَوَقفت عند ورقته الأولى، تصفحته بالكامل، لم يحدث هذا معي في كل المطارات والخراطيم التي ولجت بها، انشق وجهها بإبتسامة عريضة، بدات تتوسع نحو كل الإتجاهات، حتى إنفجر رأسها بضحكة صاخبة، اجتمعت حولها عاملات اخريات، رأسان اشقران وآخر أحمر، يضحكون عليَّ، لا طاقة عندي للشعور بالضِعة، اطرقت برأسي حتى لا اصاب بعدوى القهقهات تلك..

ـ ما اسمك...

ـ رمزي جَودَت مَكنزي سعيد مَكْتوبلي.

ـ ههه عراقي من عائلة مكنزي.

أنا ايضاً شعرت باسمي كأنه ينطق لأول مرة...ليس في تلك اللحظة..بل في احدى المرات، حينما قرأته كتوقيع في الزاوية السفلى اليسرى للوحة «ساعة سورين» التي كنت انظر اليها في المطعم الذي رأيت به وداد اول مرة، كنت أتظاهر بأن رجلاً غيري قد رسمها، مع إني كنت استطيع تحديد موقع المطعم فيها، بل كنت ارى نفسي من خلالها جالساً في المطعم الماثل في ذات اللوحة كمربع صغير في أحد الشوارع الفرعية خلف ساعة سورين...رمزي جودت مكنزيً 1965م.

مكتبة الفكر الجديد

(39)

كُنت أَحتفظ بعشرين عدد من الصحيفة التي كان يُصدرها أبي، أضَعتها في أوكاري المُظلمة تحت الخارطة، لكني لازلت احتفظ بذلك العدد الصادر في عام 1936 الذي هنأه فيه زملاؤه بولادتي، إسمي بين الأقواس والشِعر داخل مستطيل حدوده مزخرفة:

استاذنا جَودَت المكنزي..سليل بيت المجد والعز، نخلتنا البصرية السامقة...شاركها غصن من الأرز، فغرسّوا مولودهم بهياً...وأرمزوا لأسمه رمزي.

إدخرت هذا العدد مع مذكرات الأعوام في صندوق، لم أتصفحه منذ صباي، كنت أتفاخر على زملائي في المدرسة، إسمي هنا في الصفحة الأولى.. وهذا أبي رئيس التحرير، يضحكون، يتهشم غروري على الأرض مثل تنور مفخور، يقولون ..أبوك هو الأفندي!.خبأت ذلك العدد ولم اخرجه لأقرب المعشوقين بما فيهم وداد، وداد تحديداً، ليس لأني اخاف من سماع ضحكته، كان يضحك علي دائماً، بلا قصيدة صغيرة تؤرخ لميلادي الميمون.انما كنت اخفي عنه ذلك المقال الذي كتبه ابي في الصفحة الثالثة:أضرحة موهومة.

رَسم أبي بخطه خريطة دقيقة في مركزها مربع صغير يرمز به لضريح الشيخ شوفان، أرفقها بمقال يتكلم، مطولاً عن علاقته بالمكان وتأريخه، يقول إن الحمام كان ملكاً لـ«زكية سعيد مَكْتوبلي» عمته، وانه اشتغل به لبعض الوقت مع أخيه التوأم رِفْعَت، وان الأثار الحمامية لازالت على جدران المكان، المكان ربما استعمل مرات عديدة كحمام بعد ذلك التأريخ.. يستدعي ابي في مقاله كلمات اناس عجائز اشتغلن بالحمام وكنّ من المملوكين

مكتبة الفكر الجديد

للأسرة، لكن حقيقة السبق الصحفي التي ينفرد بها خارج اقواس العبارات المنقولة عن عبيد الأسرة...هي التي تفيد بأن هناك ممراً خلفياً مهملاً استعمل كمخزن لأغصان متيسبة تجلب من الهند، نافعة في الأستشفاء والترويح عن الجسد، هذا الممر يقبع فيه العاملون الجدد تحت إمرة عبيد الأسرة، ولما عاد غويلي من رحلته الطويلة خبأه ابوه بينهم، خوفاً عليه من الثائرين ضد الجيش البريطاني في البصرة، حتى انه البسه ثياباً بالية لا تثي بثقافته العالية وذاكرته التي تقتات على اللغات، وصلت الى الحمام حمولة ضخمة من شجيرة اسمها مكنسة الجنة، فلم يتسع الممر الخلفي لشاغليه من العمال، ابقى «ابو غالي الحلاق» على ولده وحيداً فوق اكوام من شجيرة «مكنسة الجنة»، وأوكله مهمة تقطيعها وفتل خيوطها، صَنع منها تشكيلات عديدة، إستحسنتها «زكية» وأجساد المرتادين، أشواكها المعتقة والمعالجة بالماء المالح أسعدت عاملات زكية وهن ينفضن الأتربة عن مصطبات الحمام الجافة، فتناهى الى الأسماع بأن عاملاً جديداً يتفنن في ظفر الأغصان الصغيرة لتلك الشجيرة.

«غويلي الترجمان» او «غويلي العبد» ابتُدِعَتْ له اسماء تمويهية اخرى، كي لا يتعرف الناس في الخارج بانه غويلي الذي ينطق بسبعة السن وله سبعة أرواح مثل القطط، وهو نفسه الذي جاب الدنيا والبحار وبلغ خليج المكسيك، وترجم الاف البرقيات والحوارات بين المستعمرين والسكان... لن يعثر عليه أحد بين اكوام من المكانس والشجيرات اليابسة و امواج من العبيد والعمال.

لكنهم في ظهيرة ما فتشوا عنه بين رؤوس المكانس و عثروا عليه مقتولاً في الممر الضيق، ساهمت «مكانس الجنة» في حجب رائحته لأسابيع، وإخفاء جثته تحت أكوامها عن ابيه الذي اعتقد بأن ابنه هرب الى طهران، ليعود

مكتبة الفكر الجديد

منها الى موسكو، كما كان يتمنى.لم يصل بلاغ قتله الى باحة الحمام، ولا الى غرفة المديرة، تنابس بأمره المقربون فقط، إختلط نَبأ رجوعه بأمر مقتلة في حكايات سرية، اضاف اليها أبوه حكاية قبره السري أيضاً، وظل يواظب على زيارته حتى بعد هدم الحمام وبيعه، صار العبيد يجتمعون عنده، يعقدون فوقه لياليهم وإحتفالاتهم الخاصة، مات «ابو غالي الحلاق» بعد سنتين من هدم الحمام.حافظ العبيد من بَعده على مزاولة طقوسهم في المكان، والناس من حولهم يظنونه مَوئلاً مقدساً لهم.

مُلايَة نفسها إشتغلت في فترة من فترات حياتها بصناعة المكانس، بل ان المكان في السبعينيات كان مشتهراً ببيع سلال الخوص ومكانس السعف، وكان يطلق عليه« سوق السعف» او ضريح السيد شوفان معاً، لا أعرف اين ضاعت خريطة الأسهم التي رسمتها وإختصرت فيها اسماء المكان وتواريخه منذ كونه قنصلية للبرتغال وحتى صيرورته حماماً تديره عمتي «زكية» وحتى..وحتى تحوله عرشاً لمعشوقي الأكبر «وداد» تَقدس سواده الطويل.

(40)

نَشر ابي مقالهُ هذا وأتبَعه بسلسلة مقالات وردود على من كتب عنه في الصحف وعلى الجدران وعلى من سبه في السوق واللافتات، كان هذا في الأسبوع الأول من مولدي، تقول أمي اللبنانية-كما يسمونها-بأنه كان يعاني ألماً في معدته منذ ايام الدراسة التي زاملته فيها ..في لبنان، في السنة الأولى من غرسي كما يعبر اصحابه المهنئون..في تلك السنة بدا واضحاً على معدته ذلك الأنتفاخ الغريب.

مكتبة الفكر الجديد

أنا لم اشعر بأني فَقدت أَبي في ذلك العام..كان مَعي دائماً، يَحملني ويُقبلني، اَشعر بزَغب لِحيته يَخدش وجهي، يَضع يده على يدي، نَعصر القلم كلانا.. نَرسم وَجهاً او شمساً او قارباً او حماراً، كُنت في التاسعة، أَتشبث بِقُضبان الشباك، وأطل على خارطة الشارع، يَدس يداه بين إبطي ويرفعني، يدور بي، تنظر اليه امي بإمتعاض، يَبصق بوجهها، ويَصعد بي الى السطح، يُدغدغني فأَضحك، كنت أَعي بأنه يحب صوت ضحكتي فأكررها بدون مناسبة، يَضع يديَّ على الحائط ويَنزع عني ملابسي، انا أنشغل عن تمارينه المكررة تلك بالنظر الى أرضية السطح، لازلت اتذكر خارطة أعقاب السكائر التي يصنعها دون ان يدري حينما يُدخن لوحده هناك، ربما كنت الأحظها أنا فقط وأصل بين نقاطها وأحصل في خيالي على ما أريد.لكنه يباغتني من الخلف ويعصرني فأبكي، يقول لي انظر الى الأسفل...سأقص لَك حكاية، سأشتري لك لعبة قطار، سآخُذكُ معي الى بُستاننا في «باب الهوى». أشعر بخازوقه يَلهَب جوفي ويَشق فيه مسارات طويلة، صرت أنسى ان ابكي وأَتحايل على نفسي في اكتشاف الوجوه والخرائط من تفاصيل ارضية السطح، حتى انتهيت الى عادة خارقة، هي ان وقت ذلك الأَلم هو لا وقت، وكل ماهو مؤلم وينتابني من الخلف هو خارج حدود الوقت..هكذا كان يَمر الوقت.

في إحدى المَرات إنتظرته طويلاً ، خلع بِنطالي ورتَب إنحناءة جسدي الصغير وذهب، مَللت من النظر الى خريطتي، اين ذهب؟، لماذا لايدخل خرطومه في جوفي، سمعت صوت رجليه من جهة السلم، خفت الصوت فأَدركت انه نزل وخرج من البيت، ربما كان ذلك اليوم هو اليوم الذي عرفت به بأن ابي مات منذ ثمانية أعوام، وان هناك ظاهرة بشرية يتشابه بها الأخوة ويُسَمون بالتوائم.سأظل حتى مراهقتي اطل على العالم معلقاً في الشباك،

مكتبة الفكر الجديد

واتوثق من أن لا أشباه جسمانيين لمعارفي.كان عَمي «رفعت» إذن!.

تَذكرت هذه الحوادث أمام وداد في يوم ما..إقترب مني ومسح رأسي الأبيض وقال لي بأنه جَرب هذا ايضاً،فتذكرت صورته تحت الرجال وهم يغتصبون ذكورته في حي المَثَلَث.

عَرفت أُمي بأمر إنتهاك عمي «رِفعَت» لطفولتي، وإنتحاله شخصية أبي «جودت« ،إنتحال شخصية كما يقولون في الأفلام والأخبار، تذكرت هذه العبارة حينما شاهدت لوحات رواية «نورست»، كان أبي «جودت»يقف خلف عمي «رِفعت» وهو يستند بكوعه على كَتف عمي، في حمام عُمتِهما «زكية» ووسط العبيد والمُدَلكين، رَسمة الشعر التي جسدتها بها «نورست» كانت متقنة جداً، حتى إني لم أميز شَكل أبي بسهولة ، كما كان الأمر في طفولتي.

اَسمع النساء والفتيات الصغيرات يَحفلن بشوفان ..لم أَسمع بإسمه مُجرداً أبداً، كان يُقال (شوفان اللي حَبَل الأفندي)، يستخدمونه للأيمان الغليظة والملاعنات، عاشت معي تلك العبارة حتى نسيت بأن أبي هو ذلك الأفندي الذي لعنه شوفان وجعل بطنه يحبل ويموت قبل أن يضع توأما لي!.

لنَورَست حفيدة عمي رِفْعت توأم أبي..لها فقط، كنت أخرج صحيفة الوالد من صندوق المفكرات، وأقرأ بصوتٍ عال، مقلداً حركات الشُعراء...

أستاذنا جَودَت المكنزي سليل بيت المجد والعزِ

وكان يُؤنسني بَعد اعوام مديدة أن أَسمع زكية المجنونة تردد هذه الأبيات في حي المَثلثْ والجمهورية.

مكتبة الفكر الجديد

(41)

من «غلاسكو» الى «كوبنهاكن»، تَلقفتني الأسهم الدنمركية، مِن كوبنهاكن الى يولاند، الى شقة مدين حَياوي!.

(مَن فعلها أنت أم الشيخ شوفان؟) قال.. وهو يَنظر إلى الخَربشات التي صَنعها ما تبقى من قلمه بفعل إحتكاكه مع الورقة، جهزت في ذهنه فكرة فسارع إلى تدوينها ولم يلاحظ الأ بعد عِدة كلمات غير مَرئية إن السِلباية قفزت بعيدا ».

سلبايات[18] القلم تقفز! كما في كل محاولاته السابقة للكتابة عني!، لكن السلباية هذه المرة طارت واخترقت قفص ضريح الشيخ شوفان، واستغرقت وقتاً لكي تنزل إلى جوف القفص، ظَل يستمع إلى صوت ارتطامها بتفاصيل الضريح الداخلية، فأكتشف بأن لهذا الضريح المصنوع من الخشب الجاوي القديم صوت ايضا« يشبه صوت المَعدة..

ضريح الشيخ شوفان، اصغر مما كان عليه في البصرة، صممه بنفسه في زاوية من زوايا شقته، تدل عليه يافطة فضية صغيرة..(medyn heyawe)، إتهمني أول الأمر بأني من رمى سلباية القلم في الضريح المُصغر، قلت له انها شارة شوفان، ما لذي تريد ان تكتبه عني؟، ماذا تعرف انت عني؟، لست سوى زائر لشوفان؟، أطلب المغفرة والتوبة والبركة،وانت مترجم اسود غبي يجمع الأرقام بالمقلوب مثل أبيه. بحثت عنك في البصرة القديمة فلم أجدك، بحثت عنك في غلاسكو ثلاثة أشهر فلم اجدك، سمعت بأنك إنتقلت الى جزيرة يولاند الدنماركية...

---

18 عامية، وتسمى بالفصحى (الشباة).

مكتبة الفكر الجديد

ـ ههه..إنته منو..

إختفى من امامي ولم اجده لكي اجيبه بحركة سينمائية، هرع الى الثلاجة بجوار شوفان الإصطناعي، قدم لي كوب من الماء، انتظرت حتى تمر موجة السعال في فمي، رشفت منه قليلاً ووضعته على طاولته.

لَمحت بين كتبه المبسوطة على الطاولة، (سانتا كورنة) كتاب غلافه صارخ، عليه صورة امراة ترتدي عباءة وشيلة سوداء على طريقة النساء في العراق، رايته بعين جبيني ينظر الي وانا اقلب الكتاب واتصفحه بعيون وجهي...نفخ زفرة طويلة وقال لي:

ـ هذا الكتاب لسغريد مالينوسكي..مثقفة دنماركية..عن النساء وهاي صورة زكية معلمتي في الأبتدائية لكوها مقتولة قرب المقبرة الجماعية للرسامين..

ـ يعني هاي زكية!

المجنون لايزال يظن ان طفولته المشوهه كانت رواية، درستهم فيها زكية في مدرسة بهلوي الأبتدائية، رميت الكتاب على الطاولة او صَفعته بها، تهيأت للدموع القادمة..وهل قتلت زكية المخبولة!، إنها نَورَست الرسامة والروائية الثانوية، حفيدة عمي رِفْعَت مكنزي سعيد مَكْتوبلي...ايها الآبق الحقير.

لا أعرف كم بَكيت، وكم نَحبت ..وأَين إنزاحت عني تلك الرطوبة، على صدره أم على كتفه أم على خدي، بكيت جدتي الكبرى زكية، تذكرت طفولتي، حينما كنت أنزل من السطح..أَفتح كتابي وأَبكي، ولما يجف الدمع بسرعة ..من عيني ومن على الأوراق، كنت أَرسم حدود الدموع المدورة واليابسة، فتجتمع في الورقة دوائر صغيرة منثورة على الصفحة، وفي الأيام اللاحقة من طفولتي..سأَتعب من البكاء وتجف غدتي المخرومه..فأفتح تلك

مكتبة الفكر الجديد

الصفحات لأنظر الى دوائري الصغيرة.لا ادري اين خبات الأعوام والدقائق تلك الكتب والدفاتر!.

ـ تعرف زكية؟.

يسألي...وأجيبه:اعرف مُلايَة وحَياوي ومكنزي ووداد ونَورَست وزكية وانت وحتى بنات حميد طبانة القحاب، واعرف أنك أطرمُ في الحساب، ولو تركت وشأنك لاكتشفت الأف الرجال المختبئين من الخرائط، وأن عدد الرسامين من تلامذة وداد هم اثنا عشر، واعرف انني الثالث عشر الذي فلت من العالم...وقبضت عليه الأرقام في قصاصتك الغبية.

دسست يدي في جيبي، ساعدني في ادخالها، ورغم انه مشدوه و حائر، اخرجنا بكلتا يدينا ..صورتي من جيبي..قلت له:هذا أنا، مَسك الصورة التي نَسختها من صورة الجدارية الضوئية في الجمهورية ..

ـ عندي وحده مثلها..

مد يديه مشيراً على نِسخة أخرى منها مؤطرة ومعلقة على أَحد الحيطان، لم تقنصها عيناي المتعبتان..رغم اني مررت كل حواسي على شقته..

ـ بس هذا مايشبهك..

ـ ماكو فرق...كلاهما خرافيان.يعني هاي الصورة الي بالغلاف تشبه زكية.

ـ هاي صورة رمزية مأخوذة من مجلة اميركية بيهه مقال عن النساء وماله علاقة بزكية.

ـ .....

ـ دوختني ...هاي رواية.

مكتبة الفكر الجديد

ـ أي ..انه ينظر الينا الأن...نحن في الفصل الحادي والاربعون.

مزقت الصورة وفركت فتاتها في يدي، نهضت ورميتها في فتحات ضريح شوفان....شاهدت مئات القصاصات متكدسة داخله..تماماً كما كان شوفان الأصلي يحفل بمئات قصاصات نساء البصرة ومطالبهن الخفية، قال لي بأن هذه القصاصات حقيقية وليست مزورة ..جمعوها من شوفان قبل أن يَهجروه، إحتفظت امه بها في أكياس وحين قَدم الى الدنمارك جَلبَها معه.

سَأكتب نفسي بنفسي، واوصيته ان يفعل ذلك..سأجلس على ضفاف بحيرة لوخ نيس، واعود الى اسكتلندة، سأدون كل ماسيقوله عن عائلته.. ينقصني الكثير من تاريخ وداد بعد ان رسم ذبابته الأفتراضية.

ـ اسولفلك كلشي.

ـ كل شيء...

كُل شئ، سَيقص لي كُل شئ، سأقبض على رأسي مثل كرةٍ سحرية، وأطوف به بين القطارات والحافلات وخراطيم الطائرات، بِحذر لئلا تَفلت من ذاكرة السبعين حبة رز أو لحظة إنكشية سيزُقها مدين ويَرصفها في دماغي، حتى أصل الى غلاسكو وأتقيأ تلك الـ(كل شئ) في مياه «لوخ نيس».

مكتبة الفكر الجديد

(42)

تَقف مُلايَة كعادتها في رأَس الدَربونَة، تَمنع زكية المجنونة من دُخول حمامها، وتَختط رؤوس المارة عسى أَن يكون لوداد رأسٌ فيها، آخر مرة زارته كان في سجن الأحداث..أَخرجوه اليها، لم تُقبله ولم تحضنه، رِفْعَت فانليته التي أكسدتها الأملاح والتعرقات، وتفحصت حلمات صدره، سَمِعت بأنهم يقصونها في التعذيب، تنحني على رجليه، تشم أصابعه وتلثمها، تفتش في كامل جسده، تقصد النقاط التي كانت تغريها يوم كانت تُعزره، تضع رأسه وهو مبتسم على صدرها وتتمتم بالأيات والتعويذات، جلبت له لفافات واستَبدلَت بها لفافات اصبعه اليتيم.

تَمر مُتصنعة على بيوت الرسامين، تتظاهر بأنها عابرة طريق، أو شحاذه.. يهمها أن ترى وجوه أمهاتهم، مضت ثلاثة أعوام، ولاتعرف سوى ان وداد الذي انتشلوه منها بعد ليلة واحدة من فعلته..لايزال حياً.ولاتدري عن أي جنايةٍ أخذوه، تعود الى البيت، تقلب الزيت على شعرها الرمادي، يجرها مدين الى باحة البيت، يسلط عليها خرطوماً للماء.يفرك راسها لتخليصه من طبقات الزيت المتخثرة وأَجنحة الذباب والتراب، تصرخ وتَشتمه..اريدُ ان أكون مثل إبني، هو الآن قطعة قذارة يحلم بقطرة ماء، لا اريد أن تَغسل شعري...

تَضرب رأسها بِجدران الدَربونَة، فتَنطبع على أكف الحناء لطخات من الزيت والعجين والدماء..يربط مدين يديها ويُرقدها في الفراش، تظل تَنفخ دُخان الغضب من فَمها، تَلطم حتى ساعات الفجر، ..تصيح بأسماء أبنائها وزوجها، كأنهم ماتوا جميعاً في ليلة واحدة، وفي الصباح يجدها ممدة ونائمة

مكتبة الفكر الجديد

من شدة الأعياء.يغطيها ويفرز شعرها مما علق بها، تشعر به وتُطيعه في الدخول الى الحمام.

ملابسها خرجت منها بسهولة، تقرفصت عارية تحت يديه، سَكب الماء عليها وتابع إنسيابه على طيات بطنها وخصرها، ضحك..حينما قالت له بأن رائحته كريهة، ضحكا سوية لما أخبرها عن رائحتها.

أوصَتهُ أن يصطاد لها ثلاثة ذكور من قطط الدربونة، ولم يظفر إلا بواحدٍ منها، أمسكته وضَغطت رقبتهُ بإبهامها، قالت له بأنه قط عجوز وبدين لهذا تَمكنت منه، قلبتهُ في حِجرها، و نَقبت عن شئ ما بين شعره ثم إستعانت باحدى اصابع مدين، قالت له ..إضغط هنا، فسحبت خصية القط، وفتحت ببطأ عقدة خصيته، وأوقفته على الأرض كانها تطلقة مثل حمامة.

لم تقاوم مُلايَة صباحاً آخر.رائحتها الأخيرة أربكت أنفه حينما عاد الى البيت، أدى ما عليه من مشاهد نهائية، صرخ ولوث شعره بالتراب..تعب من عبارات الرثاء وكلائش نعي الأمهات، داعب نفسه في النحيب باللغة الأنكليزية، ظل ساهماً في تلك الأيام، يكابر غول الوحدة العملاق، يَضع رَأسه بَين ركبتيه قاعداً على عتبة غرفتها، يشعر إن شخصاً ما ينظر إليه!.

دون أن يَرفع رأسه، حَرك يَده كأنه يَتقي بَعوضة، لكن خيال الشخص لازال يقف قربه، أغمض عينيه من الخوف، سقطت دمعة من بقايا دموع البكاء على الأم كانت معلقة ،نَهَض ينوي الهروب من ذلك الشئ...

كان يَحجب عينيه الأ قليلاً، رَفع رأسه بِبطأ يَستطلع ذلك الزائر المباغت، يقف مائلاً مستندا على الجدار، مُرتعداً.

ليست سوى رأس تاء مربوطة مَرسومة على الحائط، مِن سطور كلمات الأشعار والحكم الشعبية التي كتبتها أمه –رحمها الله–على حيطانها مثل

مكتبة الفكر الجديد

اليافطات، قبل أن تنسخها على جسم أَبيه.

يَنجح وِداد في السجن أخيراً في رسم وجه الرئيس باليد اليسرى، المَمرات دعته للإحتفال والقفز في الهواء، سَلكها...تَبعته جُموع السجناء، يسبقونه الى أبواب الحديد الكبيرة ويدوسون عليه، الجموع الأخرى التي تبعتهم استطابت جسده المبسوط على العتبات كأرتفاع يسهل عملية القفز والإفلات من الحبس.نَهض بعد أن خفَ حمل الأجساد والأَرجل من على ظهره، برَزَ الى الضوء الذي لَذع جلده، دِفء الشارع أَبطل مفعول كوكب الفطريات التي اعتاشت على جسمه طيلة فترة الحبس، هيستيريا الحكاك شغلته عن الضوضاء في عالم الشمس، صار يراجع ما أصابه من زهو جديد...رسم الرئيس باليد اليسرى، لكن الناس مِن حوله يسبون الرئيس، ويمزقون صوره، يَجرون أَعضاء تماثيله في التلفزيون، سقط الرئيس!.سقطت الجداريات!.

يمشي لاهثاً صوب منزل الضريح، يهرب الناس ببهجتهم من شكله الغريب.شَعرهُ مقسم الى تكويرات مغبَرة وبشَرة وجه صفراء وله اِصبعُ أسودُ واحد في يَده اليمنى.

يصل الى باب شوفان، يرفسه، يقحم نفسه داخل قفص الضريح، يلبث لدقائق ..حتى يراه مدين ويدخل معه.يعانقان بعضهما، وينامان.

مَحلة البلوش والبصرة القديمة لَم يبلغهما ذلك بعد، أو كأنه هكذا، الأبواب الخشبية مُغلقة، ودوائر العيون السوداء تكتظ بها ثقوب الأبواب، وحدها «أسيل» احدى بنات حميد طبانة، خرقت هدوء الخوف، وأَطلقت صوت مزلاج الباب كأنه صوت طلقة نارية، الناس عبر ثقوب الأَبواب يطالعون المكان بعد ساعات من سقوط الرئيس، شاهدوا صورة كبيرة طولها يغطي

مكتبة الفكر الجديد

كل طول «أسيل»، كانت تمسك بها وتحاول إخراجها عبر بابهم، الابواب أصبحت مواربة وخيالات الناس بدأت بالظهور، رَفعَتْ «أسيل» الصورة وضَربتها بصفحة المياه الآسنة الخَضراء، فتَطاير زجاج الصورة مع رذاذ المياه، فأنفَتقت أبواب الخَشب، وَهرع الناس صوب الزُحامات في المناطق الأخرى.

المَقرات الحزبية فَرِغت من آهليها بعد دقائق، سيهرب زعماؤها الى مخابئ في أطراف المدن، أو يفرون الى بغداد وسيفر من كان بِبغداد الى البصرة، وسَتنتشر جُثث بعضهم على الأرصفة، ويحظى أبناء العشائر منهم ببصقة أو صَفعة أو ركلة من أَبٍ فاقد أو أَم موتورة.

خرج وِداد من الضريح، بينما بقي مديَن نائماً، أدرك وداد بأن الأرض كُلها مخططة بالطباشير، وإن منطقة الرواية التي خطها بنفسه قد زحفت فإستوعبت كل البصرة، فلا داعي لإنتعال شئ في قدمه، ركض حافياً وتَتبع تجمعات الناس، قَصد كل الجداريات التي رسمها، وإستمتع برؤيتها ترمى بالأزبال، راقبَ عمود من الدُخان يتلوى في الفضاء، البيوت وقامات الرجال فوق السطوح يخفون مصدر الدخان، بعد لحظات ارتفعت أعمدة أُخرى ، جرب أن يسأل الناس لكنهم فزعوا من لون بشرته الاصفر، وصل الى بناية مُديرية الأمن «الليث الأبيض» ، ربما ندِم على تأخره في الوصول إليها، لم يبق منها سوى هياكل الطوابق وموجة أوراق وأضابير متصلة بعمود الدخان الراقص في الأفق، لم يتضرر ذلك المبنى بفعل قصف قوات التحالف، إنما هَدَمهُ الناس بحشودهم ورقصاتهم على بعض القطع الكونكريتية الآيلة للإنهيار.

تَرك إنشغال الناس في باحة المكان، وأرتقى السلالم القَلقة، كانت النساء

مكتبة الفكر الجديد

والأطفال تنبطح على أرضية الباحة الكبيرة التي تُحيط بالبناية، يُقربون آذانهم من الارض وفتحات المجاري، كانوا يبحثون عن ذويهم ويتخيلون سماع اصوات الأنين والصراخ في كل مكان.

لم تُبق النار ولم يُبق الناس شيئاً لِوداد، إفترش الناس أكياس كبيرة من الأوراق والوثائق يساومون على بيعها، أبصر من الطابق العلوي خارطة بشرية، الناس في الجانب الأمامي من البناية يصرخون في فوهات الثقوب والشبابيك باسماء ذويهم، والناس في الجانب الخلفي من البناية يجيبونهم تلك الأصوات ظناً منهم إنها لذويهم أيضاً وإنها تصدر من مغارات ومَحاجر سرية، كانت الأصوات تغير مسارات الخارطة كل ثانية.

من عليائه الإسمنتية، لاحظ وداد خمسة شبان يعرضون أشرطة فيديو كاسيت لبيعها في الأسفل، هَبَط إليهم بسرعة، أعجبهُ أن تكون وجوههم صفراء مثله، وانهم من زملائه في السجن، تَصَفح عناوين اشرطة الفيديو كأنه يبحث عن شيء محدد، تَركوه يَنفض الصناديق والأكياس السوداء، ولما أزعجهم بِحركاته المضطربة، مَدّ له أحدهم يده قابضاً فيها على شريط يحمل عنوان «الرسامين 2000».ذلك لأن هؤلاء الشباب يعرفون حكاية وداد وقصة رسامي الذباب، وفي الواقع إنها كانت مشتهرة بين سجون الأَحداث والكبار، لذلك تَحمس هؤلاء الشباب الصُفر ولم يقبلوا أن يهبوه إياه الا بثَمن.

كان حافياً وقذراً كأكثر الناس في ذلك المكان وفي ذلك الوَقت، ولايَملك شيئاً يُقايض به ذلك الشريط، فَتركه عندهم، لكنه إستدل من ذلك على وجود وثائق أخرى لدى مديرية الأمن «السابقة» حول قضية رسامي الذُباب، التي كان وداد مؤسساً فيها، (يالله كما أسست انا جماعة «العلبة الخشبية المظلمة»

مكتبة الفكر الجديد

قبل عقود!) شئ يشبه فضول مُلآية حينما كانت تتَنكر كَشحاذة وتطوف على بيوت الرسامين لِتَعرف أحوال اُمهاتهم، دون أن تَشي بِشخصها وتفضح إبنها وتقول بأنها أم وداد الذي نجا من «حلق السَبعْ»، رُغم إنه سبب المصيبة وهو الذي إبتدع طريقة رسم الرئيس بالذباب.

كَذِب، الحَق إن وداد إمتهن بنفسه بيع الأضابير والوثائق الى الأحزاب ووكالات الأنباء والعوائل الميسورة، ولم يكن هنالك من مقطع وأشرطة فيديو تصور لحظات تعذيب «رسامي الجداريات الذين رسموا الرئيس بالذباب»، تَخيلت هذا، و رَويته لا أعرف لماذا! .ربما سقطت في يد وداد اوراق مديرية الأمن التي يذكر فيها الرسامون أثناء إحدى صفقاته، ولأنه كان متهماً ثانوياً في نظر رجال الأمن آنذاك فقد تابع من بعيد خلال أَيام الحبس والتعذيب مراحل تطور القضية، منذ إعتقالهم والتقاطهم واحداً واحداً وحتى ساعة دفنهم أحياء في إحد قواطع حقل «غرب القرنة» شمال البصرة.

(43)

الحائط لايزال قابلاَ للظل، «مدين» يعمل مترجماً ويتغيب أغلب ساعات النهار، فلايحظى جسده بخيال مبسوط على شاشة الظل، قامة «وداد» وحدها تسرح وتمرح على الحيطان، إنتهت اعراض التحول، سقط الرئيس واعتاد الناس على الأمر، لم يجرب «وداد» أن يقصد أبواب الأحزاب ووكلاء المراجع الدينيين لكي ينضم تحت تشكيلاتهم، كما الكثيرين، جرب ان يجرب كل شئ وحده، يشعر ان الناس يترقبون خطوته القادمة، ماذا سيفعل وداد الآن؟، ومتى سَيمل من فعلته تلك ويتحول الى غيرها، يقصده الشباب ويستشيرونه

مكتبة الفكر الجديد

في مشاريعهم وأفكارهم وقراءاتهم، يكتفي بجمل صغيرة حاسمة تفرقهم وتقنعهم، يقولون إن منظره يشبه منظر «زكية» المجنونة وهي تهمس في آذان الحمير...إذهب أنت الى معركة العَلمين!، إذهب أنت الى الحرب العالمية الأولى!، إذهب أنت الى حرب الدبابات! ، إذهب أنت الى معركة قريش!، إذهب أنت الى معركة أحد!، إذهب أنت الى معركة بدر!، أنت إذهب الى واقعة الخندق!، وأنت ..الى أم المعارك!، وانته روح لحرب إيران!.

لكنه يركن إلى الفراغ حينما ينفض الناس عنه، يقف أمام الحائط ويمسح بقايا الحناء والشَعَر، ويتأمل ظله أمامه، ويخطط حدوده الخارجية بطبشور، يقف أمام ظله لساعات، ينحرف معه ببطء، ويرسم مثلثات ومربعات نائمة في سواد الظل، يسمع صوت مدين ويتظاهر بفعل أي شئ طبيعي، يأخذ منه كيس النفاية الدنماركية، ويفرزه بسرعة ويتفقان معاً على الأسعار المتوقعة لكل سلعة، يَحتفظ لنفسه بالأشياء التي تثير إستغرابه كاللعب الصغيرة والكتب ذات الأغلفة الجميلة وتشكيلات أغلفة السكائر، بينما يعزل لمدين الأجهزة الالكترونية المستعملة التي تثير إهتمامه.

إشترى اول نسخة أصلية لأول مرة في حياته من كتاب «الشمس المشرقة»،كانت كل النسخ التي بحوزته مستنسخة او مخطوطة، كنت أرى ذلك العنوان على الرفوف الخشبية في مرسم «الجمهورية» فأطوي عنه وجهي مرتعباً من عباراته، وأتبعه بنسخ أصلية للمؤلف الأصفهاني صاحب تلك المجاميع من الكتب التي تحكي السيرة الذاتية لأستاذه «غالي عبدون»،أحواله ورحلاته ومنازله في طهران وكربلاء وأصفهان والكاظمية، وحكاياته مع تلاميذه في المعرفة الإلهية، كنت ارى الكتب واتأمل في انتشارها بعد الحرب الاخيرة بطبعات بيروتية وإيرانية ملونة وأتذكر نسخ وداد التي اقتناها قبل

مكتبة الفكر الجديد

الحرب، فتهبط عَلي صوري الماجنة مع وداد وتأوهاتي تحت ...

فأنش تلك التخيلات من رأسي واسأل وداد وقتها عن جدار ...

كذا.

يقول «مدين» إن ارضية بيت ملاية إمتلأت بالكتب والأوراق ...

الضريح التي كانت تعج بالنساء المرتادات والقطط صارت تعج بالطلبة والغرباء اللذين يسألون عن وداد ويستجدون منه دقيقة ... مدين سمك القواميس وفراغاتها خوفاً عليها من استخدامها ... مسودات.

يعود «وداد» الى مكانه المفضل من الجدار ويخطط ظله بالطباشير ... مكان رأسه بتكويره كبيرة، يشعر بمدين يقف خلفه، يظلل تلك التكويرة على رأسه ويزودها بخطوط إضافية وحدود قوية....كأنه يريد ان ينبه ... على تلك الاضافة في شكل الظل.

ـ راح ادخل للحوزة.

ـ وداد..انته نايم لو...

ـ راح ادخل للحوزة[19]..

يسأله عن تلك التكويرة التي ألحقها بظله على الحائط..فلايجيبه وداد حتى يرآه عائداً بعد أربعة شهور من ذلك الأجتماع النادر، يراه يذرع الدرابين معتمراً عمامة بيضاء وعباءة سوداء معطرة تربت على ظهر الريح، أَما وجهه فقد اكتسب بعض الشعرات على عارضيه، يشوبها بعض البياض، عرف مدين بأن هذا الشيخ أَخاه، هذا الشيخ الذي يسهر الليالي ونصف

19 الحوزة هي المؤسسة الدينية الشيعية في مدينة النجف في العراق.

رأسه مَغمور في الكتاب، هو بلا شك وداد، يقول مِدين إن وداد إنما يكون وداد عندما يقرأ فقط، ويكون حُثالة حينما يَرسم أو يَعزف، لأنه لايرسم مثل رسام ولايعزف مثل عازف،لكنه «وداد»..مَع عمامة و جُبّة أو مع فرشاة أو مع كمان أو مع كتاب، إنهُ هو...

تَلصَص عليه ذات يوم..قاده صوت يشبه صوت ريح البطن، كان يسمعه من خلف الجدار، هز راسه ساخراً، جدران الدَربونَة بدأت بالضراط.. اين انت يامُلايَة!، إجتاز عتبات الأبواب حتى غرفة وداد، رآه يجلس امام المرآة المكسورة القديمة، بعمامته وجبته يعانق كمانه الحميم، يُصدر منه ذلك الصوت القبيح، يطلقه بحذر كانه يخاف ان يصبح لحناً محرماً، رأسه كان ينعكس على غطاء قنينة عطر وعمامته تكبر فيها وتصغر، وهو يعتصر قولونه العجيب.

دعاه الشيخ الى الجلوس...سأسمعك لحن ريح حلال، الضرطات صارت أطول، تحولت الى نوته رخيمةثم تقطعت الى سابق لحنها، نظر اليه مدين بإمتعاظ، كأنه يريد ان يلتقط له صورة بائسة، يظن ان وداد لم يعد يرى نفسه، يستطيع ان يكون أي شئ يخطر له، لاتَحكمه لذة التجارب، لا يُذعن الى مواء أحد، هو ذاته مواء.

سينتظر مدين أَن يخلع وداد عمامته ويكف عن السفر الى حوزة النجف، حتى يشركه في تجارة النفاية الدنماركية، سيلم له خُردوات والكترونيات الجيش الدنماركي، ليبيعها ويباشر اصلاح بيت الضريح بعد الغاء شوفان في غفلة عن مرتاديه، لكن وداد سيتأخر كثيراً، يظهر هذا في رسومه ومخططاته التي تبدأ من اسماء رجال غريبة..تفصلها أسهم وتقودها الى أسماء أغرب... تَنتهي بأسمه.وداد، أو نهاية سلسلة رجال معرفة الله.

مكتبة الفكر الجديد

تجرد من عمامته، ومن كل شعرةٍ في رأسه، أَحاط نفسه بدوائر مغلقة من الطلاب والعمائم، يسافر احياناً الى «النجف»، ليطوق نفسه بحلقات أكبر.

سلسلة رجال معرفة الله الممتدة من اقصى جدار المطبخ القديم الى الزاوية اليسرى السفلى من غرفة وداد...إختفت، داهمها بياض صقيل، الجدران كلها سُلِخت قشرتها الخارجية، وطُليت بأصباغ بيضاء وسمائية، كانت إيرادات النفاية الدنمركية تستهلك كلها في اعادة ترميم البيت الذي لم يتبق منه سوى ثلاثة غرف، ليس منها غرفة الضريح، يمر الناس على غويلي العبد/ شوفان بعد فَتح الغرفة على الشارع وإختصار الدَربونَة ببَيت صغير.

لا، الدَربونَة بقيت شاخصة بقططها وظفائرها وأكفها، «وداد» لم ينضبط، صحيح بأنه ترك صرعته في قراءة كتب السلوك الروحاني، لكنه انتكس بعدها كأنه وقع من شاهق، والسطور الشاهقة اعلاه كانت تخيلات مدين..في شكل بصمته الأخيرة على اخيه بعد أن يغادر الى الدنمارك، كان حريصاً على ترتيب حاله ومآله، وتأهيل البيت وفرش البلاطات فوق الخرائط والمخططات، وعلى تربة شوفان/ غويلي العبد.

تَحررت كل ألحان الكمان القديمة، لاسيما لحن «الصُواني»، تَذكره وداد في ذلك الفراغ الفاصل بين كآبتين، أعاد تَسميته وتشكيله من جديد، قَص على مدين حادثة سماعه من «جاسم صينية» لأول مرة، كانوا على متن زورق وتحت ظل شراع.الرحلة الأولى بعد وفاة حَياوي الأب، وخروج خليفته وداد الى البحر مع مجموعة حَياوي، طلبوا من جاسم ان يضرب لهم على الصواني التي يجيد تطويع أَصواتها وتطريب سامعيه المشحونين برائحة السمك، بدأ طرقاته الأولى مع تقافز ثلاثة كواسج على سطح الماء، لم يشاهدوا مثلها من قبل، خاتلت الحرب المستعرة بين الشاطئين ..والزوارق المقلوبة الفارغة،

مكتبة الفكر الجديد

وكَبرت في الأعماق.جاسم لا يتكلم ولايغني...يمكن لسامعيه ان يركبوا الصوت الذي يريدون ويُعشقوه مع طرقات الصينية المؤلم، يصغون الى قصة قتل جاسم لأبنته الفارة مع حبيبها...يسردها بطرقات اصابعه على المعدن، يَكمن لها في نهاية الزقاق، كانت عائدة الى بيت أمها، أَرسل لها يُطمئنها ويُبَلغها الأمان، إستقبلتها امها، تَماشيا معاً، اومأَت الأُم لجاسم، ضَغط زناده...وطَرز ظهر إبنته بالرصاص، كما يرد التعبير في قصيدة مقترحة لذلك اللَحن.قَلَبها جاسم على ظهرها وخَلع عنها أساور الذهب.

مقطع خلع أساور الذهب ألهَم وداد في تلك الساعة، فأحَب أن يشارك «جاسم صينية» وان يستنطقه المزيد، فأخرج كمانه من بين أكوام السمك في الزروق...وإلتحق بأنين الصينية، تحولت الأسماع الى جهة وداد، اللحن بلغ نهايته بعجلة كأي لحن لذيذ...توقف وداد، لكن الكَمان لم يتوقف، إضطر أن يرفع يَده لهم كي يُنبئهم ويخلي ذمته من مسؤولية الصوت، كانت طرقات فاترة ومضطربة تصدر عن كمانه.قام جاسم بنفسه ورج كمان وداد فتَمخضت عنه سَمكة «حِمّرية» مَيتة.

(44)

«وداد» يبحث عن خَشبة دقيقة، طولها سَنتمتران وعرضها أقل من مِلم، يريد أن يَحشرها في جَسد المسدس، ليمنع أحد أَجزاءه من الأفلات، فقد صار مَشغوف بالأسلحة النارية، مُسدسه هذا صَنعه وصممه بيده، فَتش دون جدوى في ما تخلف عن تجارة النفايات العسكرية، جرح اصبعه اليتيم دون ان يشعر، مدين إنتبه الى حدود خريطة الدماء النقطية، تَتبعها فشاهد

مكتبة الفكر الجديد

وداد يقبض على كمانه برجليه ويَده محاولاً أن يستل منها تلك الخشبة.إمتلأ قفص الضريح السابق بأغلفة مسدسات من الخشب والحديد، مواد لحام وجفنات صغيرة، وأوراق رسوم هندسية مُثبته عليها أبعاد وقياسات.

«مدين» لم يعد يراه كثيراً، او إن وداد لم يَعد مرئياً، ولا مَسموعاً، ليس لأن كَمانه نَفد بالكامل، بل لأن أصواته كان يُطلقها في الخلوات المظلمة البعيدة، يَصبر على طرائده شهرين أو ثلاثة، يترقبهن، يرسم لهن الخرائط، ويجلبهن مع مساعديه الى نهايات المدن، ويطلق على وجوههن صوته المدوي القاتل الذي صَنع آلآته بنفسه، ويُؤشر لمساعديه وطلابه بمباشرة دفنهن.احياناً كانت الخرائط تَفد عليه من الغرباء فيبادر بالتنفيذ..وأحيانا يشتري الأهداف من المُتخصصين في المدينة، يختار له ولفريقه أهداف بشرية مُحاطة بالأُحجيات، في جَدولهِ حلاقة (شعر) نسائية و مضيفة مطار ومعلمة رياضيات ..كل شهر.

أعرف جيداً ان وداد لايصبر على إمتهان الاشياء كثيراً، يقذف مابيده بسرعة مثلما يقذف كتاباً ما أنهى صفحته الأخيرة، مع هذا فإن امتهانه للقتل لم يكن انصياعاً للصرعة المتفشية في الشارع في تلك الايام التي تلت الحرب وسقوط جداريات الرئيس، أنا اعتقد بأن لوداد اسبابه التي ترسبت عن كونه الاسود الخاص، يقول «مدين» بأنه كان يظهر بوجهه اسىً عميقاً حينما يَسمع عن مقاتل النساء في المدينة، لكنه يعرف بأن أخاه يُزاول ذات المهنة في الليل.

أما المجنونات اللواتي يَذرعن ليل الطرقات المثير للشكوك، فيتوخى لهن صوتاً رحيماً يصدره من سلاح أبيض، وقبل ان تَلِد زكية اياً من أجنتها، قادها لوحده ..لوحده كما قيل، وتَولى تصفيتها «شخصيا»، إنتقى مآواها الأخير بعناية، فهو يحفظ عن ظَهر قلب خريطة الآبار في غرب القرنة، هناك حيث

مكتبة الفكر الجديد

سُوي التراب حول اثنيعشر رساماً وهم أحياء منذ زمن الرئيس وجدارياته. نَقل الخريطة منذ اعوام من أفواه عمال النفط الى ذاكرته، لم يعمِق حُفرة زكية.. غرسها هناك عمودياً وذهب.

أنا الذي أَرسلت نَورست الى دربونة العبيد، رَبيتها على الرسم والكتابة ولما أظهرت في عينيها الكبيرتين جنون الكتابة، نصحتها بالذهاب الى الدربونة، قلت لها بأن فيها حكايات وشَعراً قديماً لازال ملتصقاً على جدرانها، كانت تخبرني بأنها إكتشفت عائلة طيبة تعيش في بيت ضريح شوفان، وأنها رمزت لروايتها بشخوص هذه العائلة، وداد قَتل زكية وزكية قتلت «غويلي العبد»، ونورست الشَهيدة كَتبتهم، وأنا كَتبتهم جميعاً.

في الشهر الأخير الذي قَضاه مِدين في البصرة، عاين بنفسه صورة الخيال الشفيف الذي صار عليه وداد، جَسد اقعدته مرارة الأمراض، او رحمتها. يمتص كل العقاقير التي يحصل عليها مدين من معارفه في مقر الكتيبة الدنمركية، وفي الساعات التي يكون وداد فيها وحيداً ...فأنه يحقن نفسه بنفسه مستنداً على الجدار او الباب، او على إصبعه اليتيم.يخرج الى فضاء الدَربونَة ويعبئ إبرته من مياهها ويُلقمها مساماته، بديلاً عن المُهدئات والمنومات التي يخفيها عنه مدين.

يده تَضج بفوهات شفط المياه الآسنة، تتحرك وحدها احياناً، تَتورم وتَندمل، يَقشط خلاياها الميتة بإصبعه الأوحدي في اليد الأخرى.يتحدث احد اولاد بنات حميد طبانة عن إن الرجل الأسود في الدَربونَة له يد غريبة الشكل..يمسك بيده السليمة مكنسة منفوشة الشعر ويدفع اكوام التراب المجتمعة عند رأس الدربونة. لكنه يرفع رأسه بين لحظة واخرى نحو الأعلى كأنه يستطلع ضحكات بنات حميد طبانة...

مكتبة الفكر الجديد

لقد توقفن عن الضحك منذ سنوات، إنما اعتاد جسده على الإلتواء نحو الأعلى منذ أن كان يخرج لتخطيط عالم الرواية وكنس منطقة حدود الطباشير بمكنسة ذات خيوط طويلة ورطبة.

وداد..وداد...يمشي ببطء كخنفسانة، يدهن يده بالحناء، مُنكساً رأسه، يطبع يده على جدران الدَربونَة، فيَترك لطخات حناء على هيئة سمكة!. أنا تحسرت على منظر الاسماك على جدران دربونة العبيد، ربما كنت وقتها اترجم لافتة أو بيان أو صورة ! في مقر القيادة البريطانية في البَصرة، وَ وِداد يزاول ختم يده السمكة على الجدار، فاتني ذلك المشهد مع ما فاتني من تأريخ وداد المعاصر، وصفه لي مَدين في شقتة بجزيرة يولاند، فلم أتألم لأني رسمت في خيالي كائنٌ آخر، لايشبه وداد حياوي مثل ذلك الكائن الغريب الذي رَسمه مدين بواسطة الكمبيوتر، وعلق الصورة في جدارية مدخل مدينة «الحيانية».

(45)

بَقيت ثَلاثة أعوام ونُصبح في عام 2010 ميلادي، وذلك العام يقع في ضمن التقويم الإنكشي، فرغت من معمعان مدين، شعرت بالأطمئنان بعد أن رأيته يرتجف من البرد حينما أوصلني الى المطار، لذا تأكدت بأنه لازال يحتفظ بعقله، لأن المجانين لايشعرون بالبرد، هذا ما كنت أسمعه من العجائز ايضاً، وَقتها..تَوقفت عن شراء المعاطف السميكة المستعملة لزكية التي تُعَنفها ساعات الشتاء الطويلة بالبرد والأمطار، توصلت بعد تجارب بأنها لاتأبه بالجو ابداً، وأتذكر إنها كانت يوماً ما فوق الجسر الذي كنت أنام

مكتبة الفكر الجديد

تَحته، والمطر تعبث به الريح وتوصله لكِلانا...خرجت الى خارطة العالم في الأعلى مادام الأمر سيان، قُدت زكية وأختبأنا معاً في «سوق المغايز» المظلم... حَضّنا بعضنا، كآخر بيضتين مكنزيتين يَرقُد فوقنا السوق.

كان في جدول مُخططاتي، أن أعود الى غلاسكو وأمضي مع الماضين في قضية الحصول على الجنسية البريطانية، وأن أعود لمزاولة الرسم حتى لو تطلب الأمر تقويم أصابعي المرتجفة بالأخشاب، وأن أُفرغ شخابيط مفكراتي في كتاب وأُرسله الى مدين، وأن أشتري طقم أسنان جديد من أُسكتلنده، وأن أزور «بحيرة لوخ نيس» كل شهر مع الطفلة المُحَجبة.

مخططاتي صرت أُحررها في قصاصات صغيرة وأُسلمها لتلك الطفلة بعد أن يَطلع عَليها والدها..ويَهز رأسه مُوافقاً، أحمل صندوق مفكراتي وأمد سبابتي الشاغرة لتقبض عليها الطفلة الصغيرة، ونَنطلق.

نصل الى البحيرة ونمد بساطنا، أتركها تلعب بالقرب مني، أراقب قَفزها على الصخور وإقتراب الناس منها، لم اخبر أباها بأن أحدهم في المرة السابقة امسكها من راسها وخلع عنها حجابها، كتمت فمها بيدي، فلم تبك ولم تَشتكِ لأحد.

في الشهر الذي بعده رَبطتُ حِجابها بعقدتين وتابعنا السير الى مكاننا الذي نقصده كل شهر أمام البحيرة، سألتني فتاة شابة إن كنت اجيد التصفير، توقفت لبرهة قبل أن أجيب بنعم إيرلندية غير مقصودة، أشارت بعجلة الى احد النتوءات الصخرية المكسوة بالعشب على ضفاف البحيرة، كان هناك شاب يتلفت كثيراً.ففهمت منها انه صديقها ويبحث عنها، ...صفيري المُتعب الذي يشبه صوت فقمة، لم يكن هو السبب وراء إلتفات صديقها إليها، بل كانت تلك الشعاعات الكهربية التي يطلقها قلبي الكهل حينما

مكتبة الفكر الجديد

يخطر له العشق والعشاق!.

جلسنا وجلست الطفلة بجواري، سَألتها عن المفتاح، فأخرجته من جيبها، وأَدخلته في صندوق مفكراتي، وبدأت تديره، سَقط منها، نَظفته منَ التراب، دَلكته وأَدخلته مرة اخرى في قفل الصندوق، وأنا أدير المفتاح بقوة.. رفْعَت رأسي لارى سيدة عجوزاً أيضاً تقرأ، تقرأ وحدها، ترتدي معطفاً أَزرقَ قاتماً يحيط بكل تدويرات جسمها المتوقعة، تقرأ بلا نظارة مثلي، وأنا أسحب المفتاح المستعصي من قفل الصندوق، شاهدتها تخرج قلماً من حقيبتها وتركن الكتاب الى جانبها وتكتب في دفتر ملاحظات، قلت للطفلة ..

ـ شوفي...شوفي..هاذي العجوز جاي تكتبنا حالياً.

تعودت ان أُخرج مفكراتي، أُبعثرها حولي وأَتصفحها وأهمش عليها في هذا المكان وأَن افتح الصندوق بذلك المفتاح، بكيت بحرقة بعد أن عجزت عن فتحه في ذلك اليوم نِصف الأبيض، وبَكت معي الطفلة، دعوت الله.. وسجدت سجدة مُموهه لا يكتَشفها الناظر إلي..وقلت لله:ياقابل سحرة موسى إقبلني وخَلصني من خارطة العالم.

رَفست الصندوق برجلي وغفوت...او لم أغفُ، لا ادري بالضبط، المهم بأني مسحت الصندوق وخامرتني فكرة حمقاء برميه قرباناً لوحش البحيرة نيسي، كما يفعل ابطال روايات الجيب البوليسية حينما يمرون من هنا.

قلبته فعثرت فيه على ثقب، اسندت الصندوق على مقعد خشبي في الشارع، وانحنيت على ركبتي أنظر من خلال الثقب.كان الظلام دافئاً ويذكرني بتحتيات الجسور، تخيلت نفسي ارى صورتي مع وداد في مرسمنا في الجمهورية، تلك الصورة التي تركتها قديماً بعد ان اقفل وداد المرسم علي وعليه وعلى صورة الرئيس اصلعاً مع روايته «زبيبة والملك».

مكتبة الفكر الجديد

رِفْعَت رأسي لأرى تلك الفتاة التي طلبت مني ان أُصَفر لصديقها، كانت تقف خلفي مباشرة، تقدمت أمامي وانحنت على ثقب الصندوق وظلت تبتسم لثواني، نهَضت لأُفاجئ بمنظر صديقها يفعل نفس الفِعلة، حَدق من خلال الثقب وضحكا سويةً، طوق خصرها وشدها إليه وقبلها ثم وضع ثلاثة بنسات على الصندوق وإنصرفا.

السيدة العجوز ذات المعطف الأزرق قَلدتهما ايضاً لكنها وَضعت بنساً واحداً على الصندوق، هكذا وسط ذهول الطفلة المحجبة، إجتمع طابور من الناس، كل واحد منهم ينحني ويتَمعن عبر الثقب، يبتسم أو يَضحك ويَضع لي نقوداً على الصندوق، كان آخرهم إمراة بدينة عرفت بأَنها عراقية حينما داعَبت الطفلة.

إنفَض الناس من حولنا، وقبل أن أجد نفسي مُحاطاً بطابور آخر، سارعت بالأنحناء على ركبتي مرة أخرى لأنظر من خلال الثقب.

لا شئ سوى السَواد، حتى الظلام إختفى ولم يعد هناك من مبعثٍ للدفئ، لذلك ابتسمت مثلهم أيضاً!.

رِفْعَت رأسي، كان السواد لايزال في عيني، حركت وجهي وجربت ان أُصَفِر بإتجاهات عدة، لكن السَواد هو هو، تَحَسَستُ جِسم الطفلة بِقربي أمسكتُها مِن وَجهها وتَلمست أذنها وإنحنيت هامساً لها...صِرتُ أعمى.

حينما خطوت لأتعثر، ورِفْعَت بساطنا لأقع، شعرت بالطفلة تقرب الي شيئاً، رِفْعَته فكان الصندوق، حمدت الله لأنه لا زال مقفلاً، لأني كنت سأفقد حواسي الأخرى لو فَتَحَته مقالب الحياة السَمِجة.

مكتبة الفكر الجديد

عثر علينا أُناس من أفراد الطابور، جمعوا بنساتنا في جيوبي، وطافوا بنا الطرقات، الألم الذي يصدع قلبي كان خوفي على نفسي من النسيان، كُنت أُفكر في طريقة تمكنني من كسر الصندوق وتدوين تلك الأيام.

تذكرت «فَواده أم هاشم» التي تَحلف بها مُلايَة الكوازة أحياناً حينما تشك بأمر شوفان، مرت قصتها عَلَي بينما كان الناس يقودونني في الطريق، كانت «فواده أم هاشم» عمياء تماماً، مِثلي، ترعى جواميسها السَوداء في الأهوار، تتدافع مع الدواب وتسبح معها عند الفجر، لتعود بها الى ربوتها قبيل الغروب، تَغض (اسماعها)عن مايدور حولها ولاتبالي بما تقذف به من القُشور والبذور اليابسة، حَدث يوماً ان عادت فوادة تجر جواميسها المربوطة من أعناقها كما في كل مرة، بَرزت من بين القصب الى الناس، شاهدوا خيالها وجواميسها يقترب منهم، فإستعدوا لتدويخها بالقذف والصراخ، لكنهم فروا فجأة وتقافزوا الى الماء حينما مرت أمامهم بموكبها، مع إنها كانت تتابع ذات مشيتها الأولى غير عابئة بالأصوات، ولاتدري بانها ربطت مع جواميسها ثلاث سباع، سحلتهم معها، وأَطاعوها بخشوع كما الجواميس.

لا ادري ماذا أَجر معي الى غلاسكو!.

سيتكلم الناس هُنا عن رسام عجوز أعمى يجلس امام البحيرة مع طفلة.. يرسم وجه الرئيس على صحون صغيرة بعشرين بنساً.يصبح جُزءاً من طقوس السياحة في البحيرة، وأحد معالم المكان، يرسم وجه الرئيس بنصف دقيقة وهو أعمى، يصطحب معه طفلة صغيرة مُحَجبة، تتكفل (نش) الذباب عن وجهه وجمع المال والقراءة له من دفاتر مِلأُها العطن وروائح القطط، وحينما يكلمها..تقول له بأنه كذاب..كَذاب تُرددها مثل ببغاء مُدربة، فيضحك

مكتبة الفكر الجديد

في الأنحاء بأن هذا الرجل العجوز كاذبٌ ومَجنون.

سَألني مدين آخر مرة إن كُنت أُجيد الطباعة...قلت له :لا تخف، عَودتني أيام القصر في البصرة أن اطبع دون النظر الى لوحة الكيبورد ولا الشاشة حتى.أستطيع ان انقل ما في مفكراتي وأنا اعمى..لكن، كيف سَأقرأ الكلمات من أوراق مفكراتي أثْناء ذلك، قُلت ذلك بصوتٍ عال، وقبل أن أسجُد أو أن أبكي...هاتفني صوتٌ من عالم ما فوق السواد..

ـ آنا ..أقرأ لك.

كان صوت طفلةٍ بريئة تُغريني بِكَنْس عالمها الصَغير! وِفقاً لتقويم حصان الجندي الإنكشاري.

*2008-2008

مكتبة الفكر الجديد

مرتضى كزار

مواليد البصرة 1982،مهندس حفر ومكامن نفطية.

له:«(صفر واحد ـ كمبيوتوبيا) رواية ـ دار المغرب ـ بغداد 2006.

البريد الإلكتروني

murtedhaaa@yahoo.com

مكتبة
الفكر الجديد
26-01-2018

مرتضى گـــزار

مكنسة الجنة

عـشتُ بِسـرعـة، يفـصلني عن عـام «الإنّكَ شِي» الذي ولدت فـيـه 36.806.800دقيقة تقريباً، إذا إستثَيت طبعاً الدقائق التي يُحرقها الأن زمن الكتابة منذ 7-3-2007 والدقائق الجديدة التي سأُدشنها حتى نِهاية عُمري.

الإنّك شي إسم يشبه الطاعون والمصران والفيضان، وكلها أسماء أعوام قديمة، ورُغم إني قد ولِدتُ في عـام 1936 مـيـلادي، الأ أن الأفندي مَكتـوبلي رئيس تَحرير صحيفة بَصرة الصادرة عام 1920 كَتب بأن حادثة الإنّك شِي جَرت عام 1636 مـيلادي، قَبل أن يَشتري أفراسياب البصرة مِن العثمانيين بدراهم معدودة، إذ سَرَقت عصابة من العبيد حصان جُندي إنكشاري، واستعملوُه مُؤدياً في مَواكب العَزاء الحسينية، ألبسوه حلةً خَضراء، أسَرجوه تابوتاً فارغاً، أدخلوه بابَ المسجد الكبير، وَكانت لَيلة ذِكرى وَفاة أحد الأئمة، إستشاطَ الناس غَضباً وبكاءاً، مَشهد حِصان التشبيه الإنكشاري الذي يَحمل النَعش ألهب قلوبهم، كانت الجموع تَتماوج تَحت قوس الباب الضَيّق، تفتح الأرض للحصان، تَوَلّدَ قَوسٌ آخر من تَشابك الرؤوس والأيدي والأقدام، في جهة الباب الأخرى . الزحام إنْضَغَط في كُرة بَشرية كبيرة، تَتَدلى منها أيدي وأصابع مَحشورة تَستنجد بأسماء مُقدسة، يَدفعها مِن الخَلف حصان «الإنّك شي» وَيحصرها من الجوانب إسطوانات الباب، كانت حادثة مُروعة.... مات فيها خَلقٌ كَثير .

أزمنة

تلفاكس 5522544 6 00962 ص . ب 950252 ، عمّان 11195 الأردن

ISBN 978-9957-09-367-9 (ردمك)